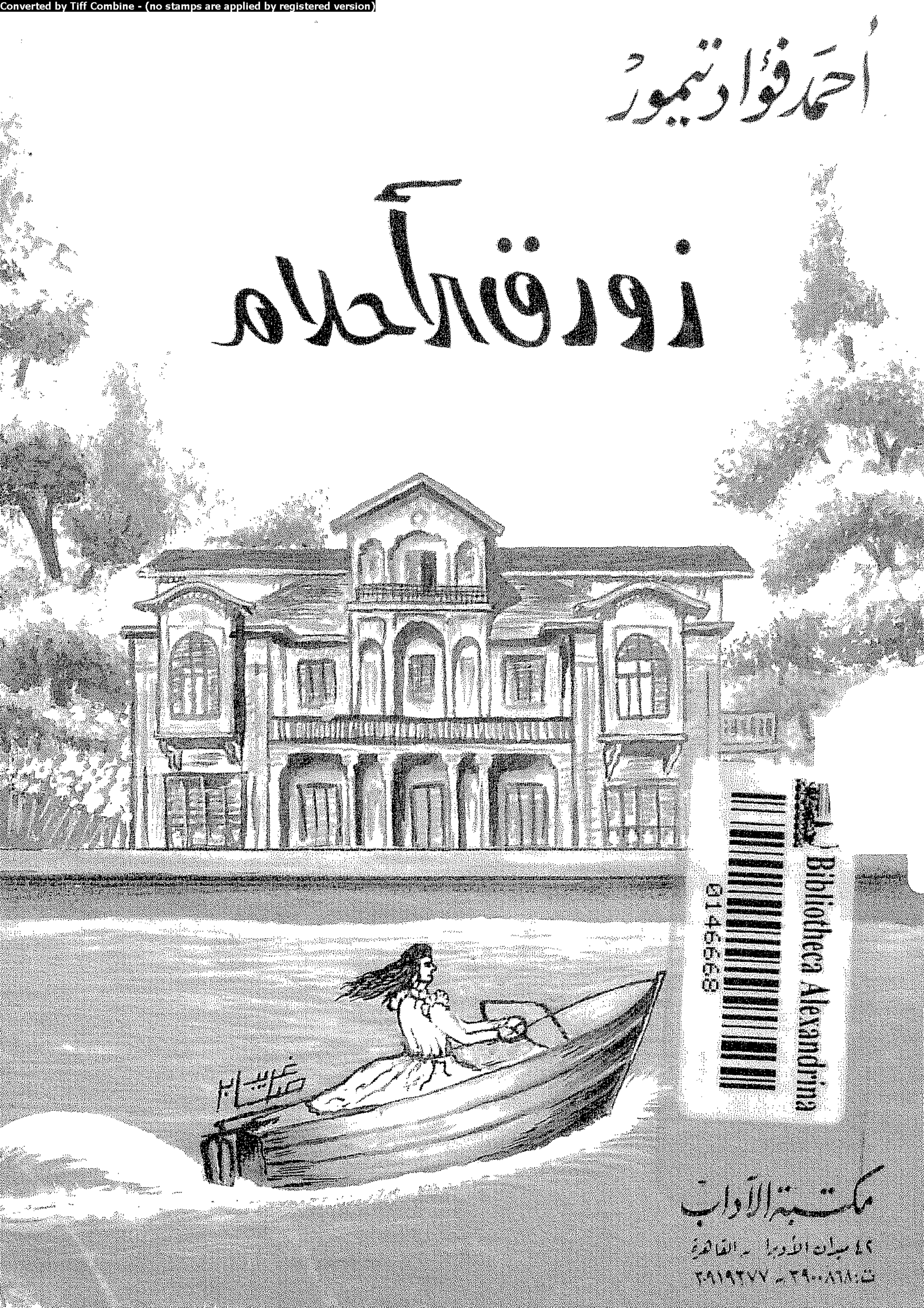

أحمد فؤاد تيمور
زورق أحلام
مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة
ت: ٣٩٠٠٨٦٨ - ٣٩١٩٣٧٧
Bibliotheca Alexandrina
0146668



زورق الأحلام

(أقصوصة)

تأليف
أحمد فؤاد تيمور

الناشر
مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا : ٣٩٠٠٨٦٨

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

إهداء

إلى :

من افتقدتُه فى صباى ، أخاً عزيزاً أكْبِره .

إلى من افتقدته فى عنفوان العمر ، صديقاً كريما أحترمه .

إلى من افتقدته بعد رحيله ، خلاً وفيا ، أبكيه وأُمَجِّدُه .

إلى :

فقيد الشباب ابن عمى محمد سعيد تيمور .

أُسْجِى هذه الأقصُوصَة ، باقَةَ مشُوقٍ إلى مشوق ، وآيةَ محِبٍّ إلى محب .

فإلى :

أن نلتقى فى رحمة الله ، مجددين العهد بيننا كما سلف ، فعليك سلام الله ورحمته الواسعة فى جنات عدن الخالدة .

الزمالك

فبراير ١٩٩٢



مناجاة

إى « طور أغلو أفندى » ...

أخَالُكَ تصْخَبُ فى مقرك من خزانتى ، تَستَرعى إليك النظر، وتهيب بى ، وأنا على أهْبَة الرحيل ، أن أضيفَكَ إلى ما أحْملُ من كُتُبٍ وأسفار ، لتتبْعَنى فى سَفْرتى إلى تركيا ، موطنك الأصيل ، حيث تَخَلّقتْ فى وجدانى فكرةٌ ساذجةٌ ناصلةٌ ، لا رَسْمَ لها ولا شكل ، مالَبثَت أن نَضجَتْ وتَرَعْرَعَتْ ، متكاملةَ السمات ، متشابكَةَ الأحداث ، متلاحمة الظروف والملابسات .

وإذا بى أنزِلُ على إرادتكَ ، مُحَقّقاً لرغبَتِكَ ، فَتَمتَدُّ يدى تَضُمُّكَ إلىَ حقيبة المتاع ، ليهدأ بالكُ ، وتستقرُّ نفسُك ، وماكنتُ ، أصارحُكَ القول ، أنتَوى أن أجعَلَ منك رفيقَ سفر ، ونديم مجلس ، وأنا ظَاعن إلى « اسْطَانبُول » أقضى بين ربوعها ، كمألوف العادة ، أجازة المصيف ، أغرق فى بوسفورها الجميل جَهْدَ الشتاء المنصرم ، وأتزود من جوِّها الأنيس ، للشتاء الجديد ، ذخيرةً تُعيننى إذا ما عدتُ إلى الوطن الحبيب ، على مُداومَة السعى ، ومواصلة الكفاح .

فهل من إيحاء تَدَّخره لى وتزوِّدنى به ؟

سأمهلك فى حقيبتى حتى نصل إلى غايتنا ، منتظراً منك الإشارةَ ، لأستَلَّكَ منها ، فتخرجَ إلى مجتمعى ، تُسامرُنى ، كما سَامَرْتَنى بالأمس السَّحيقِ ، بحديثك المُوحي الطريف ، ونحنُ جنباً إلى جنبٍ ، نجلس على مَرْسَى قصرك الرَّحيب ، آناً فى ضَحْوَة النهار ، وطَوْراً فى سَجْوَةِ الليلِ ، والقمرُ من فوقنا يُطِلُّ ، متسمِّعاً إلى ما تفيض به من تَناجٍ وَوَجْدٍ .

وأنا ، أعدك « طور أغلو أفندى » ، موعداً قريباً ، ولقاءً جياشاً أنيساً .

وإنِّىَ على شوق ، لأرْعيَكَ الأذُن ، عَوْداً على بَدْء ، وأنت عن كَثَبٍ مِنِّى ، تُوَسْوِسُ لِى بما لديك من قولٍ مزيدٍ ، يَجْعَلُنى أتَوَضَّحُكَ على ضوءٍ جديد ، فأجلو عن فهمى ما أبْهِم واسْتُغْلِقُ، حين كُنتَ تَسْرد عَلَىَّ قصَّتَك منذُ عهدٍ خلا ، فَأفْرَغْتُها فى قالَبٍ لعله لم يَرُقْ لك ، فكان مبعثاً لما أبديتَ يوم سفرى من صخبٍ وضجيج .

فإلى أن تريم محبسك وتُطَالِعَ قَارِئَك ، سأعكُفُ على مراجعتك ، والاستماع إلى شكواك ، مُدَوِّناً كل ما تتلفظ به فى أمانة وعناية وصدق .

وسوف يكون القارئ ، فى تلك الجولةِ الأخيرةِ ،الحَكَمُ العدلُ الأرِيب ، فحاذِر « طور أغلو أفندى » فيما تنوى إلهامى به ،

فعليك مجانبة النزق ، وملازمة القصد ، فيما سوف تضيف من قول وفعل .

ولعلك تستيقن أن كلَّ تأْمَة تصدُرَ عنك ، مسجلةٌ لك ، محسوبة عليك .

فإما أن تستوطنَ القبرَ ، تشملُكَ ظُلْمَته فى سُبات الفَنَاء الأبدىِّ .

وإما أن يَنْبُهَ ذكرُك ، ويلمعَ نَجْمُك ، فتنال فى سماء العبقرية إلى المجدَ والخلودَ .

وإنى أستودعُكَ ، بعد أن تَحَلَّلتَ من طوقى ، مصيرك المجهول ، فلتشُقَّ طريقَك إلى قارئك لتتبوأ من وجدانه محلاً ، فإن قُدِّرَ لك الفوزُ ، حَقَّ لك أن تُتَوَّجَ به رأسَك ، كما كان يُتَوَّجُ غَارُ النصر هامات الأبَاطرة والغطاريف .

فسلام عليك يوم تخلَّقْتَ ، وساعة وُلِدْتَ ، وحين اكتَمَلَتْ على الورق الصورةُ المُثْلَى التى ارتضَيتها وجهاً يُسْفِرُ عنك ، فأوحيتَ بها إلىَّ ، فَتَوَضَّحَتْ بين السطور فى إهابها لمن يطالعُكَ ، مؤمناً بنفسك الإيمان كلَّ الإيمان .

الوداعُ « طورُ أغلو أفندى » .

امض ، حَسْبَ ما رسمهُ لكَ القدرُ من دربٍ ، وليَكُنِ الحكْم عليكَ ، أيها الرفيق العزيز ، فيه إنصاف وتكريم .

(١)

تسودُ مناطَق الاصطياف إبّان فصل الصيف ، من كل عام ، همّةٌ ونشاط ، ويَعمُّهَا تحرّرٌ وانطلاق ، فإذا بمَعالمها تتلألأ تَلألُؤَ بهجةٍ وإيناسٍ ، كأن يدَ فنانٍ مرحَة تطاولت إلى أرجائها الفساحَ ، مُعَرْبِدَةً بمَرْقَمِهَا تُضْفِى عليها رَوْنَقَ الألوان ، وتَنْفِى عَنْهَا ، فى طِلاءٍ أخّاذٍ ، صدأ الفتور وسُبَات الشتاء .

لم يَشِذّ مضيقُ « البوسفور » فى « اسطانبول » من هذه السنة الخالدة ، كلما هجم الحر بأنفاسه المتقدة ، يلفح الوجوه ، ويصلى الأعصاب .

وتتجمع الحشودُ ، نازحةً إليه تُزْحِمُه فى ضفَّتَيْه ، فَيُحْسِنَ وِفَادَتِها ، يَهِبُها فى كرم ضيافةٍ ، ورحابة صدرٍ ، رخاوةَ الجو وطيب المقام .

فلا تلبث مغانيه الرشيقة ، وقصوره الشماء أن تَغُصَّ بأشتات المصطافين من مختلف البقاع والأصقاع ، كما تغصُّ الخلية بنحلها الدءوب ، لا يهدأ لهم على مدّ اليوم سعىٌ ، ولا ينقطع لهم ، مع مجئ الليل ، جلبة وضجيج .

وما أن يرتفع قرص الشمس ، من خلف التلال الخضراء ، فى أقصى الشرق مشعاً الضياء ، حتى تنفرج نوافذ المغانى تغازله فى ابتسامات رحاب ، فتنفذ خيوطُه السادرة إلى أعماقها ،

متسللة إلى المخادع والخدور ، تلامس العيون الناعسة ، وتَلثَم الخدود النائمة ، لتسترسل فى معابثاتها ، مُثْقَلة الدُّعَابَة ، حتى تنبوَ المضاجعُ بأصحابها ، فلا يعتم الخليج أن يَضجِ بهَرَجٍ ومراح .

ولا تهمد تلك الدوامةُ عن السعى عندما تغيب الشمس ، ويُسْدِل الليل أستار الظلام ، إنما تمتد دوائرُها إلى المساهر تكسوها ، فى نشوة برداء من نور ألأَق ، تضئ ثُرَيَّاتُه المتوهجةُ، كأنها تثار من اللجين مذاب .

على حين تَعْصبُ جبينَها بلافتات ضخام ، عارضةً على القاصدين ، الغوانى متجردات أو شبه متجردات ، لا يسترهن إلا شفوف ، تُظهرهن فى أوضاع مغرية ، توحى للناظرين بما فى أحنائها من مباهج وألطاف ، فلا تلبث أن تجتاحها موجةٌ عارمةٌ مِن هَوَسِ المجونِ ، تختلط فيها أصوات المخمورين برنين الكؤوس السكرى ، لتصطدم بأنغام الموسيقى اللاهية فى تنافر وشجار ، يمجها الملهى إلى الطريق ، فتضيف إلى ضوضائه ضوضاء .

تلك هى روح الصيف ، يلهو بها المضيق متحرراً من قيود الشتاء ، فى تمرد وانعتاق .

وفى قرية من قرى البوسفور المتباينة ، يرتفع قصر فخم له على المضيق مرسى فسيح ، يقودك إليه باب حديدى كبير تزينه نقوش طريفة الشكل ، تستوحى من أساطير بيزنطية صورها المنحوتة على مصراعيه .

أما عضادتا الباب ، فموصولتان بسياج أسود ، امتد يرقد فى شطريه على قاعدة من حجر قصمها الباب بمصراعيه نصفين متخاصمين ، فتنافرا يحمل كلاهما السياج ، عن يمين وشمال ، وقد برزت أعمدته المتراصة ، تشرئب إلى عل ، مَشيقَة القد ، شامخة الرأس ، كأنها الحراب الظافرة ، تُشْهد السماءَ على انتصارها فى زهو وخُيلاء .

فإن يَمَّمْتَ شطر المرسى تبتغى السير عليه ، احتَمَلَتْك قَدَماكَ فى حديقة شجراء ، ذات أيْكٍ وغصون ، يكسوها عشب نابت كأنه رداء سندسى ، امتد فى وسطه مَمْشىً معبد من الحجارة رحيب ، تمطى بصلبه المتطاول ، يرقد بين العشب كأنما هو سيف مُرْهَفُ الحدين ، شق البستانَ شطرين ، تفرقت فيهما أدواحٌ وارفةٌ ، حافلة بثمارها من فاكهة نادرة ، هى للعين إغراء وبهجة ، وللمذاق مساغٌ لذيذٌ .

وتحتضن الحديقة فيما تحتضنه ، مغنىً رشيقاً فى قامته ، أنيقاً فى وجْهَتِه ، وإن بدا للناظرين ضئيلَ الحجم منكمشَ

القَد ، هو لحارسِ القصر وأسرته ، سكن الدنيا ، ومن الفاقة لهم ملجأُ سلام وأمان .

(٢)

ويمتلك القصرَ وما يتبعُه غطريفٌ من أهل الرِّيفِ آل إليه بحقّ الإرثِ فى عَمٍّ عقيمٍ ودع الحياة دونَ أن تكتحل له عَينٌ بوليدٍ يستبشر به ، ويسكُنُ إليه .

وانتقل القصر إلى ابن أخيه « طور أغلو أفندى » فأمسكه ضَانًا به ، ولكنه فى الوقت نفسه مُقترٌ عليه لا يمدُّ إليه يد الإصلاحِ والتَّعْمير ، إلا إذَا استَفحلت علَّتُه وألَحَّت عليه الضرورة تهدده ، بشَرٍّ وشيكٍ .

بَيْدَ أنَّ القصرَ بَقِيَ يجاهدُ صَوْلَةَ الزَّمَن ، بمَا لَهُ من أصْلٍ راسخ ، ومَنْبَتٍ كريم .

لَبِثَ « طور أغلو أفندى » مُتَّزِناً ، بالغَ الحِرْصِ على غنَاه ، لا تَنْبَسطُ له كَفٌّ إلا مُرْغَمَةً ، ولا تكاد تَنْفَرِجُ بعَطاءٍ حتَّى يَجْأَرَ بالشَّكَايَة ، يَلْعَنُ تلْكَ المَغارمَ التى تُسَبِّبُ له آنا بعد آنٍ ، الغَبْن والخسار ، وما إن تشتد هيجته حتى يَفْرُك يَدَيْه فى استياءٍ بليغٍ كأنه يقْتَصُ منهما على هذا التَّبديدِ وذلك التَّبْذِيرِ .

وانْسِياقاً لتلكَ السُّنَّةِ الحميدةِ فى التَّحفُّظِ والاقْتصَادِ ،

توافرت له ثروة طائلة ، لا تتوقف على مر الأيام من تضخم ونَمَاء .

ويُهِلُّ « طور أغلو أفندى » بطلعَتِهِ على قصره مع فَصْل الصيف ، يأبى إلا أن ينخرط فى سِلْكِ القَادمين على الْمَضيقِ ، من طُلاَّبِ المتعة والاصطياف ، لا يعف مطالب عيشه ، من مساءلة ، ولاَ الأرقام من مُحَاسَبَةٍ ، يعتصرها أشدُّ اعتصار ، لِيَنْفِيَ عنها كلَّ ما لا حاجَةَ به ، ولا ضرورة له ، دُونَ أن يَفْتِنَهُ بَريقُ المغريات من أطايبَ وطُرفٍ ، وله على تَحَمُّلِ ما ألزَمَ به نَفْسَه من صَرَامة الطبعِ وصلابةِ الإرادة ما يدرأ عنه النَزَقَ والشُّطَطَ والإسرافَ .

وعلى خُفَارة القصر يقوم حارسٌ شيخٌ له امرأة وبنتان ، ورثه « طور أغلو أفندى » عن عمه فيما ورث ، فأبقى عليه يستعين به على الحراسة فى فصل الشتاء ، حين يصدف عنه مع فلول الصيف ، قاصداً مشتاهُ البعيد بين الحقول والجبال ، يَسْعَدَ فى كَنَفِهِ بالدفء ، نجاءً من رياح الشمال القارسَة ، تمضى إلى المضيق فى موكب الثلج ، فتتجمدُ أطرافه ، وتَشُلُّ حركته ، أما حين ينزل بقصره مع مطلع الصيف ، فتنهضُ تلك الأسرةُ الحارسةُ بخدمته ، والسهرِ على راحته ، دون أن تُجازَ على هذا العمل من المكافأة بمزيد .

ومن عادته ، إنْ هو اعتزَم السفرَ ، أن يسبق رحيله ببرقية تحمل على جناحيها إلى حارسه ، عبر الأثير ، نبأ مقْدمه ، فيتحاملُ الرجل يلِمُّ قُواهُ متوجها إلى المرْفأ الكبير ، يخطرُ فى خُطًى واهنة ، متوكئاً على عصاه .

ويَنْشَطُ هناك بينَ الزُّحمة ، يُعِدُّ العُدَّةَ لاستقبال سيده ، تتراقص على محياه بشاشةٌ وترحابٌ .

على هذا النحو جرَت الحياةُ بالرجلين سنواتٍ ، دونَ تخلُّفٍ أو قُصُورٍ .

(٣)

استبان الصيف ، ونزح « طور أغلو أفندى » كمألوف عادته إلى « مضيق البوسفور » سعياً وراء الرفاهَةِ والاستمتاع ، وقد سبقته برقيته المعهودة إلى حارسه الأمين .

ورست الباخرة التى أقلته من موطنه الأصيل على مشارف البحر الأسود ، فخرج إلى سَطْحِها يَسْتَجْلِى مطالع «اسطامبول» ويتوضح مَرْفَأها الكبير .

واستخلص لنفسه ، بين جمعِ المسافرينَ ، على حافَّةِ السفينة ، مكاناً قصياً ، اتخذه مرقبة له ، يتصفح منه وجوه المستقبلين ، ليرفع يده بالتحية إلى حارسه حين يَلْمَحُهُ ويلقاه .

واحتشد من حوله زُمَلةُ السَّفرِ ، يعتصرونه بينهم كالليمونة ، فى اختلاط وتدافع ، منصرفين عنه إلى المرسى يلوّحُونَ ويتصايحون لاَ يُحسُّونَ بَوطأَتِهِمْ عليه ، فَاشْرأَبَّ بعنُقه على رؤوس الجمع يَتَشَمَّمُ الهواءَ ، يوشكُ أن يَخْتَنِقَ ، وما فتئَتْ عيناهُ هائمَتَيْنِ فى أرجاءِ المرسَى تَرتَصِدُ حارسَ القصر .

ما كان أكبر خيبته ، وكم كانت دهشته !

إنه لم يتبين الحارس واقفاً ، كما عهده ، يخصُّهُ بابتسامة احْتِفَاءٍ وترحيبٍ ، فَنَكَصَ عن مكانه خاسئاً ، يصُبُّ على الرَّجل جامَ غَضَبِه ، ويتوعَّدُهُ ، بينه وبين نفسه ، بأشدِّ عقاب وأسوأ تنكيلٍ .

كان اليومُ قائظاً ، والشمسُ حادةٌ تكْوِى الجبَاهَ ، فانثنى «طور أغلو أفندى » على حقيبتيه ، مُستودَعَ زاده يحتملهما بادىَ الإنْكَارِ والتأفُّف ، والعرقُ على جبينه يتفَصَّدُ منه ، دون أن يكون له حيلة ، فى أن يجفِّفَ ما تساقط منه على عينيه ، يلسع جفنيه ، فأغمضهما يذهب عنهما الحُرْقَةَ ، فتعثَّر فى سعيه يسدُّ الطريقَ بحقيبتيه .

واختلطت به رُفْقَةُ الرحلة ، يتعجلونه إلى سُلَّم السفينة ، وهم يُبَرْطِمُون ، لا تأخذهم به هوادة ، فترنح بثقله يتخبط بين جدرانها وهو يريم بنتَ اليمِّ .

وشعر بالسُّلَّم يتأرجح من تحت قدميه ، على وشك أن يطيح

به ، إن هو لم يتيقظ لنفسه يحيطها بتوازن وثبات ، فتَسَانَد بكتفيه على الحبال يَدْرُج حذرَ الخَطْوِ ، تترامَى على الحواجز حقيبتاه .

ولما استقر على المَرْفأ ، حاصره الحمَّالون ، دون أن يُفسحوا له وقتا ، يلتقط أنفاسَه ويعود إلى صوابه ، عارضين عليه خدماتهم فى لَجَاجَةٍ ، طامعين أن ينَالَهم من ذلك الغطريف الريفى عطاءٌ سمينٌ .

ولم يحْتَشِم غلامٌ من غلمان الميناء ، فجٌ عنيد ، أن انْكَفَأَ على الحقيبتين ينْتَزِعُهُمَا غَصْباً فى لجاجةٍ وإلحاحٍ ، حرصاً على المنافع والأرزاق .

فغضب « طور أغلو أفندى » يَنْهَرُه فى مُشادَّةٍ من شتائمَ وتوبيخٍ ، ومن ثَمَّ تسلَّلَ بين الجمع المُحْتَشِد يغادر المَرْفَأ ، حانقاً على حارسه ، يقرقرُ فى صدره كالهرَّةِ قَرْقَرَاتِ غيظٍ دفين !

« سَيَرَى ذلك الخفيرُ ما ينالُه من وعيد .. سوف أطْرده من خِدْمَتى ... لن أُبْقِيَ عليه بعد اليوم .. ذلك الغُفْلُ الكسول ».

وبرز إلى الساحة العريضة يعتل عليه ساعداه بما حمل من أمتعةٍ ، فالتقى بسيارة حَافلةٍ سُرْعَانَ ما ارْتَقَاها ، يزُج فيها بِجِرْمه المتَكَتِّلِ زجًّا ، ويَزْحَم رُوادَها بكرشه وحقيبتيه ، متخبطَ

الخطْوِ ، مهوُشَ الحركات ، فَحَاصرَتْهُ على الْفَوْرِ زمزماتُ امتعاضٍ واستياءٍ .

وبعد لأيٍ وبحث عن مَقْعَدٍ خالٍ ، استضافَهُ مقامٌ عن كَثَبٍ من إحدى النوافذ ، فتَهالَكَ عليه لاهثاً ، وعمد إلى رأسه يطل به منه ، يَسْتَنْدِي لوجهه المحتَقِنَ ، الهواءَ الرُّطبَ .

وجرُرَت السيارةُ أحمالَها يتعرَجُ بها الطريقُ ويستقيم وسط المدينة الزاخرة بالمآذن الشمَّاء ، تارةً تتوقف وطوراً تسير مُطَاوِعَةً تلميحاتِ شُرْطيِّ المرور ، نافذةَ الصبر على ما يشيعُ حولها من هَرْجٍ واختلال ، حتى شَارَفَتْ الطريق الصاعد ، يَتَحَوَّى فى طوله على جسم الجبل ، فطرقته ترتقيه مكروبةَ الأنفاس واهنةَ القُوى ، تجاهد فى عناء مواصلة الشوط ، وما عثَّمَ أن تلقاها سهل جميل تقوم على ضفافه أشجارٌ باسقةٌ ، انبسطت ظلالُها الوارفَةُ ، تُخَفِّفُ عنها وطْأةَ التعب معيدةً إليها التوثُّبَ والانطلاقَ ، ليحاذيَ بها الطريقَ الساحلِى ، يواجهُهَا المضيقُ من جديد بمياهه المتَوثِّبة ، والسفن تُوغلُ فيه من طرَفَيْه، على حذَرٍ ، ينبعث منها فى الحين بعد الحين ، صفير متقطع يشبهُ النعيقَ ، تُثيرُ الغافلَ من غفلته ، ليجانب الخطر ، مخْلياً لها وجه الخليج .

ووصلت السيارة الحافلة إلى موقفها عند القصر ، فَلَمْلَمَ « طور أغلو أفندى » شعثه يريمها ، مُثْقَلاً بزاده ، قلقَ الخَطْوِ ، يؤلمه سَاعداه .

وطالعه قصره عليه جَهَامَةٌ وحُزْنٌ ، فدفع بابه مهتَاجَ الأوصَالِ ، فالتقت به الحديقة خاوية على عروشها ليس بها من أنيس ، فزَعَقَ فى حدّةٍ ينَادى أهلَ الدار ، ولاحت ، على بُعدٍ من جانب الحديقة امرأةُ الحارسِ فى زىٍّ الْحِدَادِ .

ثوب سابغٌ ناصعُ البياض يتهدّلُ إلى الكَعْبَيْنِ ، وأكمامٌ تُخْفِى السَّاعدَيْنِ ، وقد انْسدَلَ على رأسها خمَار أبيَض ، وانعقد على جبينها منديلٌ لا تُوشيه إلا حاشية من حرير .

ومن خلفها جاءت بنتاها حاسِرَتَيِ الرأس ، مرسلتى الشعر ، أما ثوبيهما فإنه عصرىُّ الطراز ، متضايق عند الخصر ، لا يجاوز الركبة إلا قليلا ، يسفر عن ساقيهما فى غير تصوّن ولا احتشام .

وفرطت من « طور أغلو أفندى » نظرة فاحصة إلى الفتاتين ، وظل يتوسمهما فى اشتياق وإعجاب .

وأوشكت حدة ثورته أن تنكسر ، بيد أنه تماسك يزْورُّ برأسه عنهما ، وأسرَّ إلى نفسه : الموقف موقف حزم ، فلأكن متشدّداً

لا أُفَرِّطُ ولا ألين ، واندفع يتوخى زوجَة الحارس محتدَّ اللهجة متنمِّر العين :

أين زوجك ؟ ... كيف تقاعَس عنى ، فلم يحضر إلى المرفأ لاستقبالى ؟ ... تركنى وشأنى .. فتجشَّمتْ من المضايقات ما تجشَّمت ؟ ! ألم تصله برقيتى ؟ ... أرسلتها إليه منذ أسبوع ، فأين هو ... ؟ خبرينى .

وواجهته المرأة عليها إجهاشة البكاء ، فارْتِجَ عليه بعض الوقت ، ثم علا بصوته يردد قوله :

أفى مأتم نحن ... ؟ أهكذا يستقبل رب البيت بعد غيبة الشتاء الطويل ؟ .. وشرقت المرأة بدمعها ، لا تَحيرُ جواباً .

وتلفظ « طور أغلو أفندى » يسائلها فى اهتمام :

ماذا وقع ... ماذا جرى ... ؟ أفُصِحى ... أسُرِقَ القصر ؟ أنُهِبَتْ تُحَفُه ؟ ... أين زوجك ؟ .. أفِى مخْفَر الشرطة هو يجابِه الصِّعَاب ... ؟! تكلمى .. عليكم وعليه اللعنة ... !

فازدادت المرأة نحيباً ، وتلعثمت تجيب مخنوقة الصوت :

ألا ترانى يا سيدى فى ثوب الحداد ؟... لقد لبى زَوْجى نداء ربه ... رَحَلَ إلى عالم الخالدِين ... هو الآن مع الملائكة الأبرار فى جنة النعيم ...

فغشيت « طور أغلو أفندى » سحابةٌ من كآبة ، وأطْبَقَ عليه صمتٌ ، فلم ينبس بحرف .

وانبرت الفتاتان تؤكدان له النبأ الفاجع فى صوت تغتاله العبرات :

نعم مات ... مات ! ... خَلّفنا بلا عَوْن ولا سَنَد ... ليته يعود .

وانْهَمَرتْ دمُوعهما فى لوعة بالغة .

واضطرب لسان الرجل يهمس لنفسه وهو فى دهشة :

مات ... مات !! ...

ثم جابه المرأة يستوضح :

متى ؟ متى كان ؟

– منذ أسبوع ... دفن مع الأصيل .

فغمغم « طور أغلو أفندى » وقد انهار غضبه ، ولاح على محياه التأثر :

رحمة الله عليه ... كان رجلا طيب القلب ... البركة فيكِ ... كلّنا إلى هذا المصير .

ثم تقدم من القصر متخلعة خطاه ، واختفى فيه تشرد به

تأملات ، وفى اثره الفتاتان مثقلتان بحقيبتيه ، تقودهما أرملة الحارس الفقيد فى خطوها الوئيد .

(٤)

وقبيل الغروب نفذ « طور أغلو أفندى » من الباب الحديدى إلى مرسى القصر ، واتخذ مجلسه هناك عاقد الجبين ، مشغول البال ، تسوده حيرة ، ويستبد به تفكير .

لم تكن الحسرة على موت الحارس هى شاغله ، كُلُّ حىٍّ مصيرُه الزوالُ لاَ بُدَّ . إنَّمَا انصَبَّ تفكيرُه فى مكافأةِ الرجل ، تلك الدودةُ المنهومةُ تزحفُ إلى مُدَّخَرِ ماله تَستَنْزِفُه ، فيتقاصر وَيذلّ ، وازداد تجهُّمه عندما استخرج من جيبه حطامَ قلَم . انبعَثَ يُدَوِّنُ به أرقاما على ورقةٍ صفراءَ باليةٍ ، يحاسبُ المكافأةَ وتحاسِبه فى عنادٍ مريرٍ .

وفيما هو مُشْتَبِكٌ مع أرقامه فى نزاعٍ محتدم يُنَاوِشُهَا وتُنَاوِشُه ، باغَتَتْهُ أرملةُ الفقيد تسعى إليه حاملةً صينية القهوةِ ، يتضوَّعُ منها أريجُ البُنِّ العطر ، فسارع يُغَيِّبُ الورقَة فى جيبه ، مضفياً على وجهه دلائلَ التَّحَسُّرِ والأَسَى .

ومشت المرأة إليه ، تضع الصينيةَ بين يَدَيْه ، ثم انْثَنَتْ على القدح تَتْرَعُهُ وفى قبضتها المرتعشةِ أبريق القهوة لا يَقَرُّ .

فنهض « طور أغلو أفندى » يتناول منها القدحَ وهو يقول بصوتٍ لَيِّن المكَاسِر :

لا تَشُقِّى على نَفْسِكِ ...

وأكمل ملء قدحه ، ثم احتمله بين أُصبُعَيْه وعادَ إلى مقعده يستوى عليه فى حرْصٍ ، يرشُفُ من القدَحِ رشَفَاتٍ تلوَ رَشَفاتٍ ، يلتَذُّ بمذاقِها الحُلوِ .

وظَلَّتِ المرأةُ واقفةً عن قربٍ تَنْتَظِر الإشارةَ منه .

فالتفت إليها يقول متظرِّف اللَّهجة ، وقد اتَّسعت على فَمِه ابتسامةٌ مصنوعةٌ :

اجْلسِى ... أراكِ متْعبةً .

تمنَّعَتِ المرأةُ مُتَهيبةً ، فألح عليها يدعوها أن تستريح :

أرجوكِ ... لا تَلْبَثِى واقفةً ...

وجلست المرأة على حرف المقعد فى تأدُّبٍ تتلاعبُ بحاشيةِ مطْرفِها لا تنبس ، وبقيا برهة لا يتبادلان العبارات ، غير أن الصمت أثقلَ على « طور أغلو أفندى » فتطلَّعَ إليْهَا يُلاطِفْها بقوله :

- جميلٌ « البوسفور » ... وما حال الصيد هذه السنة ...؟

- يقولون إن البحر يمتلئ به ويَفيضُ .

ولم تزد .

وأظلَّهُمَا السكوتُ عَوْداً على بَدْءٍ .

كانت المرأة قلقة ، لا يقَرُّ لها قَرارٌ ولا تسْكُنُ لها حَرَكةٌ ، كأنما يَعْتَمِلُ فى صدرها أمرٌ تريد الإفْضاءَ بهِ .

وفطن « طور أغلو أفندى » إلى ما يتناجى به وجدانها ، فتنحنح يقول لِيَصرِفَهَا عما تُريد الإفصاحَ به :

قهوةٌ لذيذة ... سَلِمَتْ يَدَاكِ ... لم أتذوقْ مِثلَهَا منذُ شهُورٍ!

فتنَهَّدتِ المرأةُ تُجيبُ ، وقد وجَدَتْ منفذاً لِما تُريد الإفضاءَ به :

أخشى يا سيدى أن تكون هذه آخرُ مرةٍ تَتَذَوَّقُ فيها من يدى قدَحَ القهوةِ الذى تَبْتَغِيهِ .

وبُوغِتَ « طور أغلو أفندى » بما سَمِعَ ، ورأى أنه قد أوْقَعَ نَفْسَهُ فى الشَّرَكِ الذى خَشِيَهُ ، فقال مُتَلطِّفاً فى مُدَاوَرَةٍ :

أمامكِ عمرٌ مَديدٌ ... وسأظْفَرُ دَوْماً بالقهوة من صُنع يَدَيْكِ .

- كلامٌ طيِّبٌ تُشْكَرُ عليه يا سيدى، لكن .. لكن الموتَ سينالُ

منا لا مَفَرَّ .. لقد ذهب زوجى إلى الرفيق الأعلى .. من كان يصدِّقُ ؟ أما أنا فَأُسَايِرُ الأيامَ ، قَدَمٌ فى القبرِ وأخرى تسعَى حتى يَحينَ الأجلُ المكتوبُ .

وأسْكَتَهَا « طور أغلو أفندى » يقول :

- ماذا تقصدينَ ... ؟

- يعلم سيدى أنى امرأة قد عَلَتْ بها السِّنّ ، ونَهَكَهَا الضَّعْفُ.

- أتَقْصدينَ ... ؟

ومد « طور أغلو أفندى » فى نَبْرَةِ صَوْته مُمَهِّداً للمرأة فرصةَ جواب ، مخافة أن يُقَيِّدَ نفسه بكلمةٍ بل بحرف يُتَّخَذُ حُجَّةً عليه .

فَغَمْغَمَت العجوزُ :

- التَّخَلِّى عن حراسةِ القصرِ .

- ماذا يدعوكِ إلى التَّخَلِّى ؟

- لم أعُدْ قادرةً على عملٍ .

- تُسَاعدُكِ ابنتاك .

- إننا ثلاثُ نسوةٍ ليس بيننا رَجُلٌ ... فى بقائنا ما يَمُدُّ إلى القصر عيونَ الطَّامعين ... الخيرُ يا سيدى أن تَعفِينى من

الحراسة ... أنْتَ فى حاجة إلى رجلٍ ... فالرجالُ تَخْشَى الرِّجالَ.

وتشاغل « طور أغلو أفندى » قليلا ، ثم نَطَقَ :

أهَذِهِ مَشِيئَتُكِ ؟

– هذا قرارى أملاه علىَّ الضميرُ ، وما أكنُّه لك من إخلاصٍ وإعزاز ... عهدتُكَ طفلا تدرّجَ بين يَدَىَّ ، حين كان عمُّك يأتى بك هنا لقضاء عُطلة الصيف ... لا أسمح أن أغشَّك بعدَ هذا العُمر المديد ... دَعْنِى يا بُنَيَّ أرْحَلُ ... ثَمَّةَ زكرياتٍ وذكرياتٍ تدعونى إلى الرحيل .

ومَالَ « طور أغلو أفندى » على المرأة يَضْغَطُ يَدَها قائلا فى صوتٍ متَحنِّنٍ :

اتركى الأمر أتدبَّرُه ... سأريحُكِ .

– أملى فيكَ كبيرٌ .

وقامت العجوز من لدُنْهُ ، وعاوَدَ رَبُّ القصرِ أرقامَه ينْخَرِطُ معها فى عراك عنيفٍ يريدُها على أن تَتَخَفَّضَ ، وتأبى هى أن تَتَقَاصَرَ وتَلِين !

فرمَى بالقلم والورقة جانبا ، ورام مجلسَهُ الوثير ، يذْرَعُ المرْسَى ذُهُوباً وجيئةً ، تبدو عليه حَيرةٌ ، وتَتَداوَلُهُ شواغلُ

النَفقات والتَكَاليف ! والحياةُ من حوله تجرى فى بهجةٍ وإيناسٍ ، فالحوافلُ البحرية دائبةُ التَجْوَال بينَ حضنَى الخليج عامرةً برُوَادها ، تَلْتَقطُهم من شاطئٍ لتسلمهم إلى الشاطئِ الآخر ، رائحةً غادية ، لا تسكنُ لها حركةٌ فى إقبالٍ وإدبار .

(٥)

وانطوى يوم ...

وأصيلا مضى « طور أغلو أفندى » يجوسُ خلال المنزل الأنيق ، مغنى الحارس الفقيد فى جولةٍ فاحصةٍ ، يحُصى ويدَوّن كل ما تقع عليه عينه اليقظةُ مما أدركهُ البِلَى أو لحقه العَطَبْ .

وإذ أتم جولته ، واستودع الورقَ تعقيباته فى دقّةٍ وعنايةٍ ، رفع رأسه إلى الأرملة العجوز ، وهى منكمشةٌ فى ركنهَا على حَشيّةٍ من قُطنٍ تردد الأذكار والأوراد ، فقطع عليها التلاوةَ يتلفظُ بعباراته على رِسْلٍ :

الآن وجب إنهاءُ مسألةِ المكافأة ... أظنُّك لا تجْهلينَ ما لزوجِك وما عليه ؟

فغامَ وجهُ المرأةِ ، وتَبَادَرَتْ إلى عينيها الدمُوع وهينمتْ :

خيركَ علينا سابقٌ يا سيِّدى .

وتعاظم « طور أغلو أفندى » منتفشاً كالطاووس يقول :

شكراً ... شكراً لك ... ولكن لدى بعضُ الملاحظات أودُّ أن أُطلعَك عليها .

وخَفَضَ بصره إلى أوراقه يقلّبُ النظر فيما دوّن ، ثم سَهَا برأسه ينطق فى صوتٍ ملئ :

ثَمَّةَ أشياءُ وأشياءُ تَعاوَرَتْها يدُ التخريب والتبديد ... فمثلاً اللوحُ الزُّجاجىُّ الفاخرُ على النافذَة البحرية هُشّم منه جُزء كبيرُ ... وقبضة الباب الرئيسى المفضَّضَةُ مفقودةُ .. لا أثر لها ... وثلاثةُ أقفال علاها الصَّدأ فلم تعد صالحةً لعمل ... ذلك فوق ما نالِ الأدوات الصحية وغيرها من تلفٍ ... فإذا أردنا أن نُنْهِيَ المحاسَبَةَ لزم أولاً أن نُقَوِّمَ تلك التوالفُ ، ثم نَستَخلصَ ثَمَنَها من المكافأة المستحقة .

وقاطعته المرأة تُهينمُ معتَلةَ الصوت :

لا تُجَشّم نفسَك ذلك العناء يا سيدى ... أعطنا ما تسخوُ به نفسُك وكَفَى .

– الحسابُ هو الحسابُ ... وإنِّى أحبُّ الحقَّ ، لا أنتقص مال أحد ولا أرضى أن يُنْتَقَص حقّى عنْد أحدٍ !

– حسبى أن تقرأ الفاتحة على روُحِ زوجى وتَترَحّمُ عليه .. لا المالُ ولا الجاهُ يُعَوِّضَاننِى ما فقدْت .

وانْبَعثَت - شَرِقَةً بالدَّمع - تعدِّدُ محاسِنَ زوجها ، وتذكر ما كان يتحلّى به من أمانةٍ ونزاهةٍ وإخلاص ، على حين انخرط « طور أغلو أفندى » يُجهد نفْسَه مع الأرقام فى ضَرْبٍ وطرْحٍ وقسمةٍ غَيْرَ عابئٍ بما يسمع ، ثم رام مكانه ، واقترب من المرأة ، يقدّم كشف الحساب ، طالبا منها بعد أن تُراجعَه ، وتستوثِق من صِحتِه ، أن تذَيِّلَهُ بإمضائها .

وأقام ينتظر .

ومسحت المرأة عينيها بطرَف خمارها ، وتسلمت منه الورقة ، ثم أجْرَتْ عليها القلم ، دون أن تَستَوثِق أو تقرأ ما حَوَتْ ، مخليةً ذمّةَ « طور أغلو أفندى » من مكافأة زوجها ... زوجُها الذى خدم القصر وسيدَه الأول ومن تَوارثُوه من بعده خلال أعوام ثلاثين .

وما أتمّتِ التوقيعَ باسمها على الإقرار ، حتى قدَّمَ لها « طور أغلو أفندى » ظَرفاً هزيلاً يحتوى على ثُمَالة المكافأةِ ، فتناولته المرأة ، ودسَّته فى جيبها وعينها تندِّيها العبرات .

فجمجم « طور أغلو أفندى » مشدوهاً :

ألا تَعدِّينَ النقودَ ... ؟

فحدَّجَتْهُ المرأةُ تقول فى صوتها المنهوك :

ثقتُنا بك كبيرةٌ يا سيدى ... كلُّنا يعرفُ لك حُبَّكَ للحَقّ ... عَوَّضَك اللّه عنا كل خير ، وجعل أيامك مشرقةً بالإقبال والسعد .

(٦)

ولأسرة الحارس الفقيد صديق أحدب من عُمال البحر ، مَنْبِتُه تُركيا ، على الرّغم من أُرومَتِه اليونانية ، رأسُ ماله الأوحد فى الدُّنيا حُطام قَارِب ، يَسْتعينُه على مُجاهَدة العيش ، واستجلاب الرِّزق .

حِرْفَتهُ الأصيلةُ الصَّيْد ، غيرَ أنه لم يُصبْ منه كسباً ربيحاً ، فاتَخَذَ من قاربه العجورز مطيةً ذلُولاً ، لكل حقيرٍ ممتهنٍ من الأثقَال والأحْمَال .

وفى الوقت بعد الوقت يبْتَسِمُ له حظُّه الأنحَسَ ، فيسُوق إليه من يرتضى قاربَه ، من نفايات الحىِّ ، وسيلةً عرْجاءَ للنزهة والمَلْهَاة ، لقاء ثمن هزيل لا يُسمن ولا يغنى من جُوعٍ ، فيظَل صاحبُنا أليف حاجةٍ وحليفَ فَاقَةٍ ، لا ينحلُّ تعقُّده ولا يَسْهُلُ متَعسرُه .

فإذا اشتَدّتْ به الخَصَاصةُ ، وألحت عليه الضرورة ، وسارت به الحياةُ عَبُوساً مُتَجهِّمَةً ، تنذره بسوءٍ وشرٍّ ، فزَع إلى حارس القصر ، مُوَجها إليه أملَه ، طامعاً فى إصلاح حاله ، بما سوف

يصله به الخدين الأريحي من هبة تعينه هو وعياله على قسوة الأيام وضراوة العيش .

وما أن يقرع الأحدب باب الصديق ، شاكياً بلواه ، حتى يوليه الخدين معروفه ، ويزف إليه نواله في سخاء وإخاء ، فيصدف عنه الأحدب في بشاشة وارتياح ، عامر الجيب ، مبتهج الفؤاد ، يلهج بالثناء والشكر والدعاء .

وكانت ليالي الشتاء الباردة ، تجمع في كثير من الأحيان ، بين الصديقين ، فيألف منزل الخفارة النوتي الأحدب ، في حجرة الضيافة ، خاليا إلى صنوه ينادمه وهما عن كثب من الموقد النحاسي ، يكرعان أكواب الشاي المعطر ، والنار في الموقد النحاسي اللامع عن قرب تضطرم ، مشيعة في أرجاء الحجرة حرارة الأنفاس ، فتتضرج وجنتاهما بحمرة ، وهما منصرفان إلى الحديث يتناقلانه ، بين الرشفة والرشفة ، متضمناً في بساطة نتفاً من أخبار ، ونثار من أحداث .

والناس ، من عادتهم ، إذا هم انتظموا في مجلس يسمرون ، تداولوا الكلام فيما يشغلهم من أمور ويقلقهم من شئون ، بيد أن لذلك الحديث العبوس أوقاتاً مشرقة يجنح فيها إلى المسلاة والملهاة ، فإن ترامى بهم القول إلى مضاحكة ، تجاذبت الدعابة، ولا شك ، طائفة ممن يعرفون ويألفون ، فيستهدفونهم بالنكتة

السَّاخِرَة ، والملاحظَةِ اللاذِعَة ، والنقدِ المرير فى تهَلُّلٍ وقَهْقهةٍ وتَصَفيق .

ولم يسلم « طور أغلو أفندى » فى تلك الندوات الشتوية ، من أن يؤلف النَّغَمَةَ الطَّاغيَة فى لَحْن المفاكهة كلما تطرقت الدُّعابة بين الصديقين تُعَدِّدُ نَوادِرَهُ ، وتُصَوِّرُ نقائصه ، وما طُبِعَ عليهِ من حرصٍ وشُحٍ .

ويعلم الأحدب فيما يعلم ، أن ربَّ القصر مولعٌ بالصيد إلى حَدِّ الهَوَسِ ، إلاَّ أنَّه لا يملكُ من أمره قليلاً أو كثيراً ، فقد تخلقت فيه ، منذ نُعُومَةُ أظفاره ، نزعةٌ غلاَّبَةٌ طاغيةٌ ، نَمَتْ معه كلما تقدمت به السن ، نمو الإعْصَار الهادر ، تحاصرُه وتقف به حين تراوده نفسه أن يبسط يده إلى دَوْحة الحياة الفينانة ، يقطُفُ من ألطافها ، طَرائفَ الثمار ، فتكفُّ يده ، ضائقةً بأن يبذل مالَه فيما لا جَدْوَى منه ولا نَفْعَ . كل شئ عندها بحسبان؛ فلا تزالُ به ، حتى تصرفهُ عن الأسْقَاط والتوافه فى تحكُّمٍ وانتصار ، فإنها تَرْبَأ به أن يَدْفَعَ بمدَّخَره إلا إذا وثِقَتْ من الربح وثوقا لا يتسرَّبُ إليْه غَبْنٌ أو خُسرانٌ . وإنها لتنكر عليه فى جبروت تسلطها أن يَقْتَنى من أدوات البحر قَارباً بل مجدافاً أو أن يتملَّكَ من آلات القَنْصِ شَصَّا بلْ خيطاً .

وإنَّهَا لتستعظم فى تصَوُّنِها على خزائنه أن يَركب البحر ، مُنفقاً فى لهوه بارةً .

نعم . إنها لن تَدَعَهُ يتجَشَّمُ ، فى سبيل مَرَحِه ، إهْدَارَ ماله ينثره على طريق الْغَوَايَة كما ينثُرُ الزارع التبنَ عن الشعير ، وهو ينفضُه فى الْعَرَاءِ ، فيتطاير فى الهواء هباء .

لِمَ يتكلفُ النفقةَ وله من الخلأن ما لَه ، يقصدونه ، فى الغداة أو الْعَشىِّ ، خاطبين وُدَّه ، مُتَحببِّين إليه طمعاً فى جلسة مأنوسة على مرساهُ الرشيق ؟

فَلْيُفِدْ منهم ، كما يتطفلون عليه ، فى غير موارَبَةٍ أو استحياء .

لن تجيز له البحر إلا إذا قدم عليه أحد أترابه الميسورين ، داعياً إياه إلى مصاحبته فى جولة بحرية ، متكفلا بما للرحلة من إنفاق ، مُوَشِّياً جوانبَ قاربه بما يلزم القانص من عتاد وسلاح .

فإن تقاصر عنه أترابه فهو مُتَخلِّف عن المضى فيظلُّ سجينَ قَصْرِه لا يريمه ، وإن تقادمت عليه الأيام ، فيألفه الْمَضيقُ ،عند الأصيل ، ماثلاً على مرساه ، متحيِّر النظرات يتملاه فى تردُّد وتخاذُلٍ وانكسار ، ومياهُهُ تَغْدُو أمام عينيه ، غنيةً بما يَسْبَحُ فيها من سمكٍ وافر الأسراب .

وبين آن وآن ، تشذّ إحدى السمكات عن القطيع مخترقةً صفحةَ الماء ، تتطايرُ فى الهواء ، رشيقةً فى قَدِّها المَيَّاس . فيتبَعُهَا « طور أغلو أفندى » بعين شرهةٍ ، وهى تغوصُ قافلةً إلى سربِهَا فى الأعماق ، فيشعر باللهفة وحَسْرة النَّفس .

وتمتد به الوقفة حيث هو ، يَرْنُو إلى مياه الخليج ولا يَفْتَأ يرنو إليه لا يَكَلّ ولا يَمَلّ ، فإن ألحّت عليه الرغبة فى الصيد ، اندفع إلى الحجر العريض عند الماء يقْتَعِدُه ، غامساً ساعدَه فى اليَمِّ يلهو به ، مُوهماً نفسه ، وهو يعابث بأصابعه أحشاء المَوْج ، أنه صائد أَلقى بصِنَّارته فيما رَمَى به الصائدُون من شُصُوصٍ وشباك .

وفيما انتهى إلى الأخْذَب من أمْر ربّ القصر أن تلك النزعة العاتية فيه نحَّتْ طَيفَ المرأة عن دنياه ، فلم يعُدْ لها فى دولته رفيف إلا ما كان من بعض مغامرات عقيمة هَمَّ بها فى رَيْعَان شبابه ، ولم يعد لها فى حياته صداها المؤنسُ البهيجُ .

لم يغب عن فطنته الاقتصادية المتوقدة ، أن حواء الخالدة مَجلبةُ خرابٍ وشر ، فما شأنه وشأنها ؟

لن يَدَعَهَا تخدعه وتُغْويه .

ليتحرزُ منها ، ولْيَنْزِ عنها لغيره من الحمْقَى ، تَبْتَزُّ منهم ما تَبْتَزُّ ، تاركةً له رصيده يتزايد ، وثروته تقفز بها الأرقامُ تُلو الأرقام ، حتى تصبح كالطَّوْدِ الشامخ لا تنال منتهاه العيون .

على هذا النحو ذاب طيف المرأة من خيال « طور أغلو أفندى » ولم يَعُدْ يُجْريه على ظَنّه ، إلا فى الرُؤَى والأحلام ، فى تحفُّظٍ واحتشامٍ .

وشدّ ما كان النوتىُّ ساعةَ يودِّع صديقه الحارس ، ويزايل منزل الخفَارة ، يُمسك خُطَاه على قارعة الطريق حيالَ المبنَى الرّشيق ، متطلعاً إليه يدير فيه النظر ، مُعيداً فى أذنيه ما جرى بينه وبين خَدينه من حديث ، فتجيش فى صدره أطماعٌ ، كأنها رؤوس الجبال الشّوامخ ، تترامى على البعد ، يعدُّها غيرُ واهم ، عسيرَة المنالِ .

أما القصر والحديقة والمرسى ، فيظفر كل على حدة فى رأس النوتى ، بمشروعاتٍ رحابٍ ، توفِّر لصاحبها العيشَ الرضىَّ والخيرَ المستطاب .

وربّما امتدَّ به التأمُّل فى شأن « طور أغلو أفندى » وما يَمْلك ، طوال الشهور تتوضح له الحياةُ فى رحابها ناعمَةً رخيَّةً ، إن دانت له تلك الأمانى ، وتحققت تلك الرّغاب .

(٧)

تقاطرتْ تلك الذكرياتْ على النوتيِّ الأحدبِ ، حينما سمَا بيده مُحَيِّياً الأسرةَ فى مُنْصَرفِها ، عند المرفأ الكبير ، بعد أن

أخلى سبيلها « طور أغلو أفندى » وحاسبها فى مكافأة الراحل ذلك الحساب الذى تَشيب حقاً من هوله ملائكةُ القبور .

وارتدَّ النوتىّ إلى كوخه ، والأفكارُ تلتطمُ فى رأسه ، وكأن وَعْيَه انقلب بحراً مُواجاً ، يتصارع عُبَابهُ ، وتصفُرُ فيه الريح .

لماذا شعر بسارية من غبْطَة ، تُثلج صَدْرَه ، وتُرنّح أعطافَهَ ، وقت أن ألقى بالتوديع إلى أسرة صديقه الحارس ، صديقه صاحب الأيادى البيض عَلَيه ؟

ألا يجدر به أن يَبْتَئسَ لذلك الفراق الذى لا لقاء بعده ؟

أيَهْزَأُ بالموْتى ، ويخونُ ذكراهم طمعاً فى نعيم دُنْيَوىّ ؟

وتمشّتْ فى الأحدب قشعريرة ، جعلته لا يُحْسنَ التَّمَاسُكَ ، فحبس خُطَاهُ وأوَى إلى جذع دَوْحَة من أدواح الطريق ظليلة ، عَمَدَ به ظهرَه ، يسترد أنفاسَه المتلاحقة ، ويستجلبُ لنفسه المضْطَربة نسيم الراحة وبَرْدَ السلام .

لا رَيْبَ عنده أنه حاسدٌ لتلك الأسرة فيما فَازَتْ به فى بيت الحراسة الأنيق من عيش ناعم هنئ .

ولا مريَةَ أنه تمنى لها هذا المصير ، ليخلو له سبيل ؟ إلى المغنى المهندم ، يخلفُ صديقَه ويَفْرِض سلطانه عليه ، يحدُوه جشعٌ بَغيضٌ .

إنه ليُحِسُّ بغبطةٍ تؤذيه أكثرَ مما تُسْعِدَه .

إنه يشعر بالتّهافُت يتفشّى فى أوصاله يكاد يهدُّ كيانَه ، ويحطِّم وَعْيَهُ ، ويسوقُهُ إلىَ خَبال .

ألا من خلاص ؟

ما ضَيْرُه إن هو عَرَّجَ على مَشربِهِ المألوف ، يستعين على ضعفه بحَسْوةٍ من خمر ؟

ألم يَتَواتَر عنها أنها قاتلةُ الأحْزَانِ ، ومفرِّقَةُ الهُمُوم ؟

عليه بها ...

وتخطَّى الطريقَ ، يتعجلُ خُطاه .

(٨)

وأخلد الأحدب إلى مشْربه المألوفِ ، يمازج الكأسَ كأنَّما يُمازِحُ جليساً أنِيساً ، يصيبُ من الشراب الرَّشفة تلو الرَّشفة ، على مَهَل ، وقد استْغرَقَ فى تأمُّلٍ وتفكير .

أسرته ... ؟

تلك القافلةُ العجفاءُ الشوْهَاءُ ... ؟

لكأنها تَتَمثَّل له إبلاً ، تائهةً بها خُطاها ، تَشُق آفاق صَحراء جَرداء جَدْبَاء ، متلهبةَ الوجه ، ليس فيها ظلٌّ لمسْتَظِلٍّ ، ولا نَهْلَةٌ لصَدْيَانَ .

إن ذكراها ، لتزكُمُ أنفه ، وتثير في نفسه التَقَزُّزَ والاشمئزاز .

ولم يتمالك ، حين هبَّتَ سيرتُهَا عليه أن حنق ، يغضن من جبينه ، ويقذف الأرضَ ببصقَةٍ عريضة ، حملتْ عنهُ حسرَةَ النَّفْسِ ، ولوعة الفؤادِ .

ولملم الرجل شعَثَ فكْرِه ، يتناجى في صمت :

أبناءُ ... ؟

خَسئوا من أبناء .

ثمراتٌ نالَ منها العطب ، خرجت من صُلْبه ، إلى مجمع البشر ، جراثيمُ إيذاءٍ وضَلالٍ .

كبيرُهم ، لا عمَّره الله ، ولا أبقاه ، شيطان من شياطين الجِنّ ، هو لإبْليسَ وزبانيته ، ظهيرُ غواية ، وسندُ شر .

امتَطى صهوَةَ الرذيلَة يغزُو بها دُنْيا الأحبَاء ، ناشراً رداء فسَاده وبُردَةَ أذاهُ .

آنسه سُوقُ المخدَّرات أداةَ لينةً مطواعة ، لمن هم في ساحته من التُّجار العتاة ، فَمَثل في حياة يومه يخشى النور ، ويَتَهيَّب النَّهَار ، لا يُسْفِرُ لَه ظَل ، إلا في جَنَحِ الظلام كالخفافيش لا تلوذُ بالفضاءِ إلا مع مجئ الليل ، وانْحِسَار الضِّيَاءِ .

حديثه فى مخابئ المدمنين ، مهموسٌ ، فيه توريةٌ وإبهام ، يتخافَتُ به أصحابُ الكَيْف ، على حذَرٍ وخَفَاءٍ .

بيد أن لحماة الأمن ، هم الآخرون ، عيون كالخفافيش حادةٌ الإبصار ، تنفذ فى الظلمة تمزّق غَبَشَتَها فتحيلها صُبْحاً مُبْصراً يفضح المتخفى ، ويكشف عن المُتَسَتِّر فى مُحاذَرةٍ ، بالملاءة السوداء .

وذات مساء ، تمكنت الشرطةُ من صاحبنا ، حين كان يُروِّجُ تجارته المسْمُومَة فى متاهةٍ غائرَة فى بطن الجبل ، بنَجْوَةٍ عن الأنظار ، تخيروها لِنَدواتهم ، مَثَابَةَ عَرْبَدَةٍ وفساد ، يحيطونها بسِّريةٍ وكتمان ، فتسلل إليها حُماة الأمن ، على هُدًى من عيونهم الساهرة ، مُتَنَكِّرين فى سمات المدمنين الأصلاءُ ، متظاهرين بالتَّهَافُت على المخدِّر ، يحثُّون صاحِبَنا فى مذَلَّة واستعطاف أن ينيلهم منه ، ولو أقَلّ مقدار ، بالثمن الذى يَحلُه لنفسه ويرتضيه ، لما يعانونه من حسرةِ الحرمانِ ، وقَسْوَةِ الإدمان .

ولما وثق بهم ، بعد لَجاجةٍ وإلحافٍ ، كشف القناعَ عن حقيقته ، وما أن استَلَّ المخدِّر من مَكْمَنه ، حتى أوقعوا القبض عليه .

وسيق إلى المخفر عَاثِرةٌ خُطاه ، تارة يَنْحي باللائمة على

طَالعه النَّحْسِ ، وطوراً هو باكى العين ، يدفع التُّهْمَةَ عن نفسه ويتبرأ مِما نُسب إليه .

غير أن القانون لم يعبأ إلى دِفاعه ، فنال منه ، يُنْزِل به أشدَّ عقُوبة ، وأعسَرَ قصاصٍ .

وها هو ذا ، منذ عهدٍ خلا ، طريدَ المجتمع ، طريحَ السُّجون ، يَكَفِّرُ ، خلف السياج والقضبان ، عن فعلته الشنعاء بما استحقَّهُ من عقابٍ .

أمَّا مصيرُ غده المرمُوقُ ، حين يلفظه محبسه إلى حرية وانطلاق ، فمطويٌ فى مجاهل الغيب ، ليس فيه بصيص من أمل تَتَخايلُ من خلاله لمثله حياة يعمُّها ضياءٌ ، ويسودها فلاحٌ واستقامةٌ وطُهْرٌ .

وأما ثانى أبنائه ، عليه النِّقمةُ ، فلم يكن بأمثَل من أُخيه .

متعطلٌ قعودٌ . له من الأولاد ثلاثةٌ ، رابعهم أمُّهم ، أفواهٌ عاويةٌ ، وبطون خاويةٌ ، وأجسام عارية ، وغَمْغَمَاتٌ لا تنفكُّ باكيةٌ شاكيةٌ ، لزام عليه ، هو كبشُ الفداء ، أن يُخْرِصَهم ، مدَبِّرًا المأكل ، والمأوى ، والملبسَ ، ليكتب لهم فى الحياة نصيباً على حينَ ينصرفُ أبوهم إلى مُجُونه ، متسكِّعاً على الأبواب الخلفية لِمَسَاهرَ مُريبةٍ ، يتلقَّطُ منها نفايات الغَوَانى فى منصرَفِهم مع انسلاخ الليل ثَملاَتٍ . يقدِّمْهن سلعةً رخيصةً

للراغبيَن فيهنَّ ، لقاء مايَقْبضُه من ثمنِ إثمٍ وكسبٍ حرام ، لايَنْشَبُ أن يتَبخْرَ بالتَّمام والكمال ، فى زُجَاجةٍ من خمر وَضيعة السُّمعة ، كريهة المذاق .

وينساقُ قافلاً إلى الكوخ ، وتباشيرُ الفجر تلُوح ، مُترنحَةٌ خطَاه ، تعلو عقيرَتُه بأُغنياتٍ مُبتذَلَة ، يؤديها صوتهُ المخمورُ فى عرْبَدَةٍ من الألْحَان ، والناسُ من حوله نيامٌ ، والمغانى هاجعةٌ فى سُبَاتٍ وسكونَ .

ما يرقى صدى الأغانى إلى مخدع النوتى ، تَقْرَعُ بخَلاعَتها سمعَهُ ، حتى يتطايرُ النعاسُ من عينيه ، ويهُبُّ من مرقده ، مقَلوب السَّحنة ، يتلقى السكران ، ثائراً عليه ، يناقشُه الحسَاب محتَداً ، يقصف بالقول كالرعد .

ويختلط صوت الرجلين فى زَيْطَة ؛ الأبَ يلعنُ ويَسُبّ هادراً مُزَمْجراً ، والابن سادرٌ فى غيِّه ، لا يَفْتأ يشْدو بالأهازِيجِ فى تصايُحٍ مُرتَفعٍ ، يشبهُ الحَشْرَجَةَ .

فينقلب الدْربُ الساجى إلى ضوضاءٍ وصَخَب ، يهز المغانيِ المجاورَةَ فى هرج ومرج .

ويتسلَّل أهلُ الحيِّ من مَخَادعهم ، يؤُمُّون الدرب الهائج ، فى لبوس النوم ، مُتَسخِطين برَمينَ ، وما انفكَّت تلُوح على جُفونهم الخدَرة فلولُ النُّعاس .

ويضمُّهم دارُ الأحدب ، فينهض كلٌ منهم بدوره يعملُ فى كلمة طيبة على فضِّ الخصام ، وحسْمِ المُشاجرة ، جاهدين فى إعادة الزُّقَاقِ إلى سابقِ أمنه ، كاظمينَ الغَيظَ ، حفاظاً على الودِّ وحُسْنِ الجوار .

وأما أصغرُ أبنائه ، عفَى اللهُ عنه وهَدَاه ، فغلامٌ قاصرُ الوَعْى ، ضعيفُ البِنْية اتخذ من الحِدادة حرفةً له ، ارتضاهُ شيخٌ من شيوخ المهْنة السالفين عَونا له ، فليس فى مَتْجره ما يخْشَى كَسَاد على يَدَيه ، وقد طحنه الكبرُ ، وضَرَبَتْ عليه العنكبوتُ بنَسْجها ، فتَوارىَ فى كهْف النِّسْيان ، لا يحج إليه من روّاده إلا القلّةُ ، فانكمش حانُوتُه ، وتطامن رزقُهُ ، وإن ظلّ فى عالَم الحدادة ، علَماً من أعلامها الأفذاذ ، يحتفظ له الأندادُ والنظراءُ من جيله بالزعامة لا ريب ، ويتنادرُ بحذقه ومهَارته أشبالُ الحاضرِ فى إعجابٍ وتقديرٍ وإعظام .

وأبى الغلامُ إلا ملازَمتهُ ، يصلُ معه السَّيْرَ ، ويتأدَّبُ على يَدَيْه ، لاَ عن تَمْحيص ودراية ، بل تَولّهاً به ومحبةً له ، فقد دأب الشيخ يترفَّق به ، ويكرم معاملتَه . مما حملَ الغلاَم على التّفاني فى خدمته ، يتمسكُ به سيداً له ، على أنه كان يُصاولُ الحياة فى كَنَفه محدودَ الرزق ، مُتخَاضعِ الكَسْب ، يكاد أجْر يومه لا يفى بكِسرةٍ من خبز .

وليس للغلام فيما أصابه من تخلف وتقاصر ، جريرةٌ أو ذنبُ ، إذ أنْزَلَقَتْ به قَدمُهُ يوماً وهو طفلٌ ، فوقع على رأسه وأصابته لوثَةٌ ، أفْقَدتهُ التَّكامل والتَّكافؤَ والنُّموُّ .

وإذا بركْبِ الحياةِ يحتَملهُ في موكبِ الأحياءِ أصَمّ الوَعْيِ ، متحجِّر الفَهْمِ . أولئك أولاده الذكورِ ... ؟

وبصق الأحدب يُزمزم ، تتوضّح على مخايله أطيافُ حسرةٍ ونَدَمٍ .

ذكور ... !

أهؤلاء الأوغاد ذكورٌ حقاً ، له أن يفاخرَ بهم ، ويركنَ إليهم ، ويعولّ عليهم في مشُورة تُطْلَبْ أوعملٍ يُنْجَزُ ؟

حسبه منهم مسلكُهمُ الشائنُ ، وما فيه من خِسَّةٍ وعارٍ .

ليلتهمهم البحرُ إلى قرارٍ سحيق ، ويطويهم الموجُ على غير رجعةٍ يريحهُ منهم ، وليخلُدَ هو إلى نفسه ، يكمِّلُ جهادَه فيما تبقى من أيام يعيشُها ، لا يَرْتكزُ في توفير عَيْشه على أحدٍ ، إلا على بصيرته وساعديْه .

وتحيّر الأحدب في جلسته ، تَزْحَمُه الأفكار من كل صَوْبٍ ، وهو يَشْتَفُّ ثُمالَةَ الكأس ، مُبْتئِسَ النَّفْس .

كيف لا يَحْزَنُ وهذه كُبرى بناته ، عليها وعلى مثيلاتها اللعنةُ

تعايشُ خليلاً لها على مرأىً ومسمعٍ من الأشْهادِ ، هازئة بما للشرف من تصوُن وحفَاظٍ ، جاعلةً منه ، وهو أبوها ، صاحبُ الحَقّ عليها ، وصمةَ عارٍ فى جبينِ الحىِّ ؟

لتكمل الحياة مع عشيقها بمَعْزِلٍ منه ومنأى .

لن يراها .

لن يرضاها .

لن يغفرَ لها ، ولو قصدَتْه جاثيةً تائبةً ، تعفّر جَبينَها بالتُراب، عند قدَمَيْه .

إن حذاءه الذى يَنْتَعلُه لأشرفُ منها وأفضلُ ، فهو ، على أسوأ فرْضٍ ، لا يُدَنّسُ مقدسأت الرُب ولا يتلهى بمعتقدات السماء ،بل يَربأ أن يسوقه إلى فساده شرٌ .

سُحْقاً للجميع ... ليذْهَبوا إلى الجحيم !

وفرَطَتَ منه بصقةٌ أرسلَها فى حنق ، مستنكراً تلك الملابساتِ المريرةِ محاصرةٌ وتُلاحِقُه كشواظٍ من نار تقشعر منها حدبته .

ونادى ساقِى الحانَة ، ليُسْعفه بقنيِّنةٍ أخرى يواصل بها الشرابَ ، فينفِىَ فى حَسْوةٍ منها غَصَاصَةَ الضمير ويُغرق فى سلأفها الخيبةَ والخِزْىَ .

ويَكْرع الرجل منها كأساً كاملة ، ويعتمد رأسَه بين راحتَيهْ ، فيتمثل له طيفُ شتيمُ الخِلْقةَ ، مترَهّلُ الجُرْمِ ، يعرف فيه زوجتَه تلك النَّمرةُ الضاريةُ ، وقد وقفت على رأسه مجنحة الذراعين ، تجلده بلسانها الحاد ، وتَرجُمُه بالمهانة والسباب .

كلبٌ مسعور ينبحه ، ولا يَفْتَأُ يَنبحهُ ، يضمر له فى قرارة النفس الحقد والشر .

لقد تزوجها منذ ثلاثين عاماً ، أو يربو، ويا ليته لم يَغُلّ بها رقبته ويقيد بها حياته .

ماذا جنى منها غير نفسٍ لئيمةٍ ، ومزاجٍ حامض ؟! وهذه الشَّرْذِمةَ من كلابٍ عاويةٍ ، لا نَفْعَ فيهم ولا خَيْر .

ويرفع الكأس إلى شفتيه ، وما يلبث أن يعاوده سهومُه .

وسُرْعان ما تَنْفرِج أساريرُه ، وتْطمئنّ نَفْسهُ ، ويتلألأ على مُحيَّاه إشْراق ، وهو يغُوصُ فى مقْعَدِه ، يستروح ما هب عليه من شذاً ذكيٍّ .

ويلُوحُ له وجهُ « فورتينيه » صُغْرى بناته ، فيتلَقاهُ قمراً مكتملَ النُّموّ ، يشعُ منه نُور ألَاق ، يُمَزّق الضَّبابَ القاتِم المخَيمّ على حياته ، ويضيء له عتَمةَ دُنياه ، مبدّداً من حوْله الوَحْشةَ واليأسَ ، باعثاً فيه البهجةَ والأنْسَ .

« فورتينيه » هى شُرْيانَهُ الحىّ وقلبُه النّابض ، من أجلها انبعثَ يُغالب العيشَ ، ويُصارِع الأيام متشبثاً بالحياة ما وَسعَهُ التشبُّثُ ... إن عليه رسالة لم تصل إلى مستقرِهَا بعد ... رسالةً نحو تلك الزهرة الوادعة الطُّهور ، و كأنه استَنْبَتَها من طينةٍ غير التى أخرجت إخوتَهَا هؤلاء الأراذلَ الأوغادُ .

هى أنيسة الطبع ، عَطُوفة عليه حفِيةٌ به ، يألفها سَلِسَةَ القياد دائمةَ الحياءِ ، جَمَّةَ الأدب ، إنْ محّضها النصح استجابت فى طواعية ولين .

إنها دُرّةُ بيته ، وسلامُ نفسه ، وأنس عيشه .

لها هى ، هى وحدهَا ، سيعيش ليُهَيّئَ لها الهناء والإسْعَاد ، فى زوجٍ ملئٍ يفرِشُ طريقَها بالذّهب ، ويخلع عليها اللآلئ واليواقيت .

ويتوقّفُ قليلاً فى تفاؤله ، يعُبُّ الكأسَ عَباً ، وقد عاودته الهواجس والأوهام :

أنّى له هذا الزوجُ ... ؟

ألم يَعْلَم علم اليقينِ ، أن الفقر يجرّ إلِى الفقر ، وأن الثراء ينْسَحبُ إلى الثّراءَ ؟

إنه يبغى « لفورتينيه » حياةً كريمة ، تحياها بمنأى عن ذل

الحاجة ، وتعاسة الحرمان .

عليه إذن أن ينفذ إلى كَنْز ، ويستلهم الكأس الهداية فيما يحيره من فكر ، فيرفعها إلى شفتيه ، يصب خمرها في حَلْقه دَفْعة واحدة ، فيتضرج خداه ، ويصعد بُخارُ الخمر يغزُو مَسارِبَ حِسِّهْ .

ويُعاوده الأمل يبرقش في مخيِّلته المخْمُورة لَوْحَةَ الحياة تبتسم له وتُغازله في إطارِ مذَهَّب جميلٍ من جديد ، فَيُقْسِمُ غيرَ حانثٍ في قَسَم ، وأنه لنافذ إلى المال حيثُ وُجد ، وإنْ كلفه ذلك أن يَسْرِق ، أن يَتَحَطَّمَ ، أن يَفْنَى .

لن تقفَ في طريقهِ قوةٌ ، ولن تَحُولَ دون إرادته عقبَةٌ .

أليس طَمعُه مشروعاً له ما يسوغه ؟

أَلَيسَ لابنته ، مُهجةِ روحهِ وَمعْقد آماله ، حَقٌ بل حقوقٌ ؟

إن لم يطمع فيما طمع ، فكيف يتألَّقُ جمالُها في أفق الحياة؟ وما يكون مصيرها في خِضَمِّ العيشِ وتَصَاريف الزمن ؟

لماذا يَتطاولُ عليه الضَمِيرُ في تلك اللَّحْظَة المُشرِقَة ، يُطْلِقُ في سمائه غمائم سوداءَ ويوسوسُ له بكلام أجوفٍ مشئوم ، يشبه في دَوِيِّه هزيم الخراب وقَعْقَعَةَ الْحرْب . ؟

ما لك أيها الضمير ومالي ؟

إنك لأبَلهٌ مأفُون ، لا تُحْسِن إلا التَّقْرِيعَ والتَّنديد ، وأن لك منطقاً أصمَّ لا يبالى ما على الآباء للأبناء من تَبِعاتٍ رحابٍ ، ومسئولياتٍ جسام .

« فورتينيه » عزيزتى ...

لا عليكِ ...

ستتوافر لكِ حياةُ الأبّهةِ والثُّراء .

وإنى لكفيل بأن أشيِّد لكِ فى العالمين صَرْحاً فارهَ العماد ، خارقَ الحُسْن ، تحليهُ النقوش النفيسة ، وتُزيِّنُهُ أغلى ما فى الوجُود من طُرَفٍ وألطاف ، فتتناقلُ سيرته الآفاقُ ، وتتشدَّقُ بوَجَاهَته الركبانُ والأمطار .

أُقْسِم برأسِك أنى لفاعلٌ ، وإن تقاضانى التَّقصِّى مُهجتى ، وشُقَّ رمْسى .

لا عليكِ يا ابنتى ...

سأرمْى بشِصِّى ، وأقيمُ دونه ، لا أعافُ الجلوسَ ، ولا أكره الانتظار .

لقد علَّمنى البحر ،ذلك الماردُ المهُول ، كيف أحتمل إن أردتُ، فى آخر الشَّوط ، أن أنال الجزاءَ المنشودَ .

وظَعَن الأحدبُ عن المشْرَب ، مَتخلِّعاً فى مشْيِه ، تَتيه به

قدماه ، فى ظلمة الليل ، وقد سَرَتْ فى أوصاله نشوة غامرة .

(٩)

تطاير خبرُ جلاء الأسرة عن القصر ، فأصبح فِناؤهُ بينَ عَشيَّةٍ وضُحَاهَا ميدانَ تَنَافُسٍ وطماحٍ .

وكيف لا ، ومنزل الحراسة متراحبٌ ، كثيرُ المرافقِ ، عظيمُ المغانمِ ، يوفِّرُ لمَنْ يظفر به رغادةَ العَيشْ ، وهناءةَ الحياة .

فأما الحديقة فهى كنز ثمين : لكل ما تنبت ثمنٌ وريعٌ يَفىءُ على من يتعهَّدُها بالإصلاح والتشذيب النُّعْمَى والبركة .

وأما حظيرة القواربِ ، فهى على أطراف القصر متراحبةُ الأكْنَانِ ، إن تولَّتْهَا يدٌ حاذقةٌ مدبرةٌ كان من ورائها كسب كبير وغُنْمٌ موفور .

لم يَعزُبْ ذلك على الجيرة من أهل تلك القرية المُتَنَائية عن «اسطانبول»

فيترادَفُ على القصر ورَبِّه نفرٌ من الراغبين فى الحراسة ، محملةٌ أيديهم بالهدايا أفانينَ ، كأنما هى على مذبَح الآلهة قرابينَ تَقَرُّبٍ وتودد .

وردت القصرَ بالأمس سلالٌ حافلةٌ : ديك محمَّر يقْطُرُ منه الدَّسمُ ، ودَجَاجٌ محشُو بأرز مَسْمُونٍ ، وفاكهةٌ طيِّبةٌ مُنتقَاة .

واليوم استمرأ « طور أوغلو أفندى » بثلاث سمكات مشويات ، على زجاجة من العَرَقِيِّ المعتَّق ، وتفَكَّهَ بعدهُن بمِشْمِشٍ وكَرَزٍ وتُفَّاح .

ثم تجشأ تجشؤةً مديدةً ، وهو يمسحُ بيدهِ على كَرِشهِ المُنبعِجَة يريح معدَتهُ المُتْخمةُ ، ويُعينُها على طَحْن ما تَمَلأت به من طعام سائغٍ شهيٍّ .

وتَفيأ « طور أوغلو أفندى » ظِلالَ تلك النِّعمة الوارِفَةِ ، غير مُتَعَجِّلاً اختيارَ الحارِس الأمين .

فَلْيَبْقَ مكانَ الحراسةِ شاغراً بعضَ حينٍ ، وليتشَدَّدْ ما وسعَه التَّشَدُّد فى أمر الحارس الجديد من هؤلاء الذين يتقاطرون عليه لشَغْلِ ذلك المنصب الخطير .

لقد أصبح التنافسُ تجارةً رابحَة ، فَفيم البدارُ والوقتُ أمامهُ مُنْفَسِحٌ ، والشتاء بعيد ؟.

حَسْبُ القصر الآن أن يحرُسَه ربُّه ، متقلّباً فى أعطاف النِّعمة، يتلَقَّى الهدايا الفاخرة من عُشاق الحِراسة الذين يلتمسون إليها كل سبيل .

ويعرك « طور أوغلو أفندى » يديه فى نَشْوةٍ ما بعدها نشوةٌ، كلما طرق ساحته طامحٌ جديد متشاغلةٌ يداه بزاد كريم .

ولبث الرجل على مد الأيام حفِيًّا بقصّاده ، ولا يهدأ له بال ، ولا تَفْتُر له همة ، يعتصر جَبْهَته وقد انخرط يُساوم فى صلابةٍ وَعناد .

فَإنْ بُحَّ صوتُه ونَالَهُ فُتُورٌ ، قطع نِقَاشه بإشارة من يده ، يضع حدا لِلجَاجَة القول ولغو الكلام ، ويَتَحَلْحَلَ عن مجلسِه ، مرفوعَ الهامة يخطر على المرسى خطرات هَيْمَان ، يستندى الهواء المُفْعم بأرِيج البحر .

(١٠)

وبينما كان « طور أغلو أفندى » يستمرئ ابتهاجه بما يستقبل من الأطايب والألطاف ، إذ وقع حادثٌ جعله يراجع نفسه ، ويَفِيق من غَفْوتِه يفكر تفكير جدٍّ ، فى أمر الحراسة على القصر .

أصبح ذات يوم ، فَألفَى قفل الباب الكبير محطَّماً ، واستبانت له آثارُ عُنْفٍ على الجدار ، فلم يبق لديه شك فى أن ثَمَّة يداً خفيةً بيَّتَتْ للقصر شَراً وأذيَّةً .

لقد اشتد به التبرم ، واستبد به السُّخْطَ ، كأنه لم يَهْبِطْ مَصيفَهُ إلا لمشاكسةٍ ونضال ، وقتُه يتقاسمه قُصَّادُ جاهه ، وطُلَّاب رِزقه ، دون أن يكون له حقٌ فى خلوة يَنْعَمَ فيها بوقتٍ

دِعَةٍ وجمام .

هذا طامعٌ جديد حلَّ عليه حين تَهيأ ليرتَشِفَ قهوةَ العصر على مَرْسَاهُ ، وما فتئت مخَايِلُ النُّعَاسِ تَرْتَقُ فى عَيْنَيْه .

ما أثْقَلَ على نفسه أن يستقبل وافداً أياًّ كان يخُوضُ مشكلةً أو يدْخُلُ فى جَدَلٍ ، ولم يفرُغْ بَعْدُ من مذاقِ قهوته ، فيصْفُو مزاجُه ، ويتَّزِنُ فكرُه ، فيُعَاوِدُ بقية نَهَارِه رائقَ البالِ ، مُنشرحَ الصدْر .

والويلُ كلُّ الويلِ لمن يَطَأ ، فى تلك البُرْهة الحَرِجَة قَصْرَه أو يَتراءى له ظله وما انْفَكَّ يضْبُط أوتارَ مزاجه بقدحِ القهوة ، كما يضبط الموسيقىُّ أوتارَ آلته ليعزف معها لحناً جديداً مُشرق النَّبْرَة ، مرح الأنغام .

يا لَلسُّخْفِ !

أتُقْتَحمُ وحدَتُهُ دون سابقِ إنذار أو استئذان ؟

أوَ طرفة هو من الطرف ، تتداوله الأرقام ، فى جلسة المزايدة ، صاعدةً هابطةً ، لا يقوى على إعلاء صَوْته يبْتُرُ حدَّةَ المماكسة ؟ ويقطع حَبْلَ المساومة ، فَيُعَايِش صيفته ، رافه البال ، يرفرف عليه أنس وسلام ؟ .

ألم يَتيَقَّظ ذلك الغِرُّ المأفُونُ بأن ربَّ القصر ضائق بحادثٍ

يَوْمه ، غير فَارِغٍ لمجادلةٍ ، شاغله الأوحد هو الكشْفُ ، بشَتَّى الحِيَل ، عن سرِّ الجريمة التى كادت تقع لولا لطف اللّه به .

ويحه من متبجح لم يتخير الوقت الذى يطالع فيه « طور أغلو أفندى » بسحْنَته الغبراء ، ومَنْطقه الكريه .

أيَهلُّ عليه خالِيَ الوفَاض لا يَحْملُ بين يديه ، كَقُصَّاد أمس ، ذخيرةً من ذخائر العيش ، ولتَكُنْ حبَّات عنَب لا يحتويها سَفَط كما ينبغى ، بل يُغَلِّفُها قرطاسٌ رخيصٌ .

وحَدَّجه « طور أغلو أفندى » بعين غَضَب يتطايَرُ منها الشرر ، وتَفَوَّهَ بقَوْلٍ كادَ يُخرِج الزائرَ عن تَوَقُّرِه ، فيردُّه بكلامٍ خشنٍ ، ينْتقص من كرامته ويُحطُّ من قَدْره .

واحْتَدَمَتْ المناقَشةُ بين الرجلين ، وأحسَّ « طور أغلو أفندى » النخوةَ تأخذُهُ ، فانْبَرَى يحسمُ المجادلة ، عَنيفَ اللهجة :

هذه هى شروطى ... وليس عندى أحسَنُ منها .

وَيَمُرُّ الرجل بيديه على سربَاله ، مهوَّش الحركَة ، ثم ينطق بالإجابة مُتَخَشِّعَ النَّبرة :

لكنها شروطٌ مجحفةٌ ... فأين مكارِمَتُكَ لأهلِ الجيرَةِ ؟

فقاطعه « طور أغلو أفندى » مستنكراً القولَ ، وَعقَّبَ يُنْهِى

الجدلَ فى حزمٍ :

ليس أمامى فسحةٌ تَتَّسع للمُمَاكَسة ... هذه هى شروطى ... إن قَبِلْتَها حَضرْتَ من غَدِكَ تَتَسلَّم مهامَّ مَنصبِكَ ... وإلاَّ فلا تُضَيِّعَ وقْتَكَ ... وتُعكِّرَ علىَّ عَشيَّتى فى جدلٍ أجْوَفَ غيرِ مُجْدٍ ... ،وقْتِى أثمنُ من أن يُبْتَذَلَ على هذا النحو الرخيص .

ولما لم يُجِبِ الرجلُ ، رفَعَ « طور أغلو أفندى » يدَهُ بالإشَارة قائلاً :

مع السلامة .

ثم ازورَّ عن الرجل ، يَمْسَحُ أساريرَهُ المُخْتلِجَة ببطْنِ يدِهِ ، وهو يَزْدَرِدُ ريقَهُ مُجْهَداً .

واستدار يرنو إلى فضاء المضيق ، ترتعد فرائصه ، وقبالته على ضفة الخليج ، ترعاه تلال رشيقة ، تفرَّقت على مراقيها المخضوضرة ، شواهق دور ، تتوهج من نوافذها المصابيح ، والشمس آذنةٌ إلى المغيب ، كأنها عيون الأحياء ، برقت تغازله بنورها المترسِّل على البعد ، كأنما هى النجوم أهدتها السماء إلى الأرض باقات من ضياء تبهج بوميضها الأنظار والقلوب .

فأنس بها « طور أغلو أفندى » وفتر لمرآها كدَرُ النفس

ولوعة الفؤاد .

(١١)

ولما التقى « طور أغلو أفندى » بوَجْه الماء ، تُعَابِثُه الأمواجُ ، نازَعَتْه نفسُهُ للصَّيْد ، فقد أبصر على بِضْعِ خُطُوات منه على ضوءِ الشمس الغَارِبَة ، قطيعاً من السَّمَك يتموَّجُ صوْبَ الجنوب .

وَمثُل يحدّجُ الماءَ ، مليًّا ، فَتَسْرِى فى أوصاله نشوةُ القانصِ ساعَةَ يَشْتَبِك والسَمَكَة فى مطاردةٍ ونضالٍ .

ولا يفوته وهو فى مهب الأخيلة أن يحكى بالإشارة والتلويح ما تقتضيه المعركة من مرواغةٍ واحتيال .

السمكةُ تعالجُ التَملُّص متقلِّبةً فى طيات الماء ، والصَّائدُ متربصٌ بها يُحْصِى عليها الحَرَكَة ، فإن تَعَاصَتْ عليه ، أسلَسَ لها القيادَ تَمْويهاً ومُخَاتَلَةً ، وحِين تستقرُّ وتهدأ يدفع الخيطَ إليه فى عُنْفٍ وإصْرارٍ ، فتخوضُ السمكةُ المعركةَ من جديدٍ ، فى مُكَابَرَةٍ واستبسالٍ ، حتَّى تستنفذَ قُواها ، وتَفْتُر مقاومَتُها ، وينال منها الجَهْدُ ، وإن هى إلا جَذْبةٌ من الصائد تخرج بها السمكةُ من الموج عالقةً بالشَّصّ تَخْتَلِجُ اختلاجَةَ الفناء والموت .

من أين له تلك النشوة ، وزمرة الرفاق بمنأىً عنه ، لا يبادرون إليه بما يتوافرُ لديهم من قواربَ وعتَادٍ ؟

عَهِدَهم ، فيما سبق من أيام ، إن هُم تَشَمَّموا له شذاً في المضيقِ بادروا إليه ، فينقلب قصره قاعدة تَجَمُّعٍ يتَّخذونها ركيزةً لهجومهمُ المُنَظَّمُ وغَيرُ المنظم لغزواتِهِمْ البحرية المأنُوسَةَ .

ليس ذلك بمُسْتَغْرَبٍ ، فالقصر قائمٌ في أجملِ بقعةٍ من بقاع « البوسفور » نُضْرَةً وخُضْرَةً ، وربُّ القصر يتمثَّلُ لهم غُنْماً موفورَ النِّعْمَة : حديقته تُفْسِحُ لهم فرصةً لهوٍ ومَسَرَّةٍ وتُنيلُهم من أشجارها اليَانِعَةِ أطايِبَها لذيذة المساغِ .

وكان « طور أغلو أفندى » يتعَرَّفُ فيهم على الرغم من حرصه وتحرُّزِه الوسيلة المثلى لإشْبَاعِ رَغْبَتِه وهواه .

ماذا تُكَلِّفه الضِّيافَةُ والاحْتِفَاءُ بهم ... ؟

مرسى القصر ما هو إلا حجارةٌ لن يُصيبَهَا من جرَّائهم تلفٌ ، وثمارُ الحديقةِ يَشْقَى في تَعَهُّدِها الحارسُ ، فَلْيعيثُوا فيها فساداً ، ما دام الغَبْنُ لن يتحمَّلَه .

أما هو فكان يَنْعَمُ بكلِّ ما للبحر لَدَيهم من أثاثٍ وعتَاد ، دون أن يَغْرَمَ شيئا في شبكة تَتَقَطَّعُ ، أو شِصٍّ يضيعُ .

أيْنَ هؤلاء الأصدقاءُ والأخْدَانُ ... ؟

ألم يستيقنوا بعدُ أنَّهم بنأيِهِمْ عَنْه يَدَعونه يَتَجرَّعُ الأمرَّيْنِ من احتباسٍ وحرْمانٍ ... وأنهم بتَجاهُلِهِمْ له يُفَوِّتُونَ عليه فُرصاً ذهبيَّةً قلَّ أن يجودَ البحرُ على قانصٍ به ، شغوفٍ بذخائره ولهانٌ، مثلَ ما يجودُ بها عليه في عامه هذا ... عامِ البرِّ والإخْصَابِ .

ألاَ سُحْقاً لهؤلاء الأقْرانِ الأغْبِيَاءِ .

واقْتَعدَ « طور أغلو أفندى » حَجرَ الدَّرَجِ العريضِ المنبسطِ على الماء ، وانْثَنَى يَغْمِسُ فيه ساعدِه كأنه يُطفئ غليلَ الرغْبَةِ المشْبُوبَةِ بين ضُلوعه .

وتاهت به خواطرُه .

وأفَاقَ من تصوُّراته على ضَرَباتِ مجدافٍ دَرِبٍ ، فأومأ يتبيَّنُ ، وإذا به يُبْصِرُ قارباً غيرَ بعيدٍ ، يبرزُ فيه شبحُ النوتيِّ الأحْدَبِ ، وقد ترامت من جوانبه إلى الماء خيوطٌ وشباكٌ على حين انْهمَكَ يستخرج من بطن القاربِ ما أخْفَاهُ من معدَّاتِ الصيد الأخرى كأنما يَخْتَلِ بها الأنظار .

لقد جلب الأحدَبُ لقاربه منذ أيامٍ أفخَمَ ما عرضَتْه أسواقُ

«إسطامبول » من آلة الصَّيْد ، وها هي ذي قد توافرت لديه تَختَلِبْ عَيْنَ « طور أغلو أفندي » في مُسْتَقَرِّه على مرسَى القصْرِ ، يُسَرِّحُ البصرَ في المضيقِ ، على مألوفِ عادته ، يَجتَلِي محاسِنَه ، مكتحلةً بها عيناه .

ولبثتْ أنظارُ رَبِّ القصر شَرِقَةً بما احتواهُ قاربُ الأحْدَبِ العابرِ ، وامتلأتْ نَفْسُهُ برغبةٍ تَوَدُّ أن تَتَفَجَّر مع السمك في تلاحمٍ ومُصَارَعة .

كيف السبيلُ إلى أن تَنْبُتَ بينَه وبينَ الأحدَبِ ألفةٌ ومصاحَبةٌ ... ؟

أيُبَادِئُهُ بالكلام ويُرْشِدُه إلى سربِ السمكِ السابحِ صَوبَ الجنوبِ ... ؟

وهمَّ بأن يَصيحَ بالرجل غيْرَ أن الأحدَبَ لَمَّ خيوطَهُ وشبَاكَه ، وهوى على مجذافَه يَجذِبُه إليه ، فانساب القاربُ يتنَآى في هوادةٍ ويُسْرٍ .

وَصَدَفَ « طور أغلو أفندي » عن حجر الدرج العريض عند الماء ، ومضى على رَحَبَة المرْسَى ، يذرَعُهَا بخُطَاه ، عاقداً يَدَيْه خَلْفَ ظهره ، تهتز كَرِشُهُ ، وتَتَشَابَكُ عيناه بالقاربِ ، يودِّعُهُ في مُنْصَرَفه ، وداعَ وَلْهَانٍ .

واختفى القارب فى معاطف المضيق كأنه طيفُ حَسْناءَ ، شَرِدَتْ فى استحْيَاءٍ تَحتَجبُ عن أنْظَارِ « طور أغلو أفندى » الجَوْعَى وهما تُتَابِعَانِها على البُعْدِ فى تولُّه واشتياقٍ .

(١٢)

إن الحديدَ المنصهرَ إذا طَرَقْتَهُ استَلان لك يَتَشَكلُ بحَسَبِ ما رَسَمْتَ له من قوالبَ وحُجُومٍ ، فإن لم تُعَاجِله بالطَّرْقِ قبل أن يستردُ صلابَتَه ، عزَّ عليك أن تبلغَ منه ما تريد .

وما النفسُ البشريَّة إلا شَبيهَ ذلك المعدن فيما له من خصائصَ ، فإن صَهرَتْهَا الرغبةُ واستبدَّتْ بها النزوةُ ، أصبحت سَلِسَةَ القياد طَيِّعَةَ الزِّمام ، لا يتعاصى عليك أن تسوقها فى الطريق الذى رسَمْتَ دُونَ مَشقَّةٍ أو استكْراه ، أما إذا فَسَحْتَ لها مُهْلَةَ التَّرَوى ، وتركْتَ لها أن تحزِمَ الأمرَ ، فإنها لا مَحالة مستعصيةٌ عليك تَستَبِين طَريقَها على بصيرةٍ وهدًى .

كانت هذه هى فلسفة النُوتِىِّ الأحدَبِ فيما أحْكَم من خِطَّةٍ ليُحقِّقَ مأربَه ، ويَبْلُغَ مُبْتَغَاه .

فما يوشك النَّهار أن ينتصف حتى يَتَخطَّر القارِبُ على الماء ، يُناوِش عَيْنَى « طور أغلو أفندى » ، وقد وشّاه طلاءٌ

قشيبٌ ، وتراءت عليه للصَّيْدِ ألوانٌ من الأدواتِ والمُعدَّاتِ .

أما آن لذلك النوتيّ أن يترَفَّقَ به ويَرْثِى لحالِه ؟

إمَّا أن يدعُوهُ إليه ، وإمَّا أن يَنْزَوِى عنه مأسوفاً عليه .

ويقوم بين « طور أغلو أفندى » وبين نفسه ذلك الصِراعُ المألوفُ .

فما يكون قابَ قوْسَيْنِ من الصَّياحِ بالرجل أن يتوقف حتى يُدْبِر عنه القارِبُ نائياً كأنَّما يَسْتَهْزِئ به فى جسارةٍ واجتراءٍ .

وتواردت أيامٌ ..

والقارِب لا يتخَلَّفُ ، وصاحبُه الأخْذَبُ يرُوحُ ويَجِئُ ، مَرِحَ الأعْطَاف ، ضَحُوكَ السِّنِّ ، يشْدُو بترنيمةٍ شعبيَّةٍ يُصَلْصِلُ صَوْتُه منهَا بقَولِه :

لا بُدَّ للظَّامِئِ أن يَشْرَبَا فالصَّبْرُ لا يَلْبثُ أنْ يَذْهَبَا

فَتَتَرَسَّلُ كَلِماتُها على سَمْعِ ربِّ القصرِ وكأن مقاطعَهَا الجمرُ المَحْمِيُّ .

(١٣)

آوى « طور أغلو أفندى » إلى فراشِه غير هانئٍ بطيب

النُّعاسِ ، فصَلبَ عودهُ يتكئُ على حَشيَّةٍ ، يدخِّنُ لفَافَةَ تبغٍ ، تَتَقَاطرُ عليه الصُّورُ والذِّكرَياتُ .

تلك صيفةٌ منحوسةٌ لا بِشْرَ فيها ولا إيناس .

لم تكتف باختطاف حارسِ القصر والإنْحَاءِ عليه بالمغارم بل تجاوزته إلى صَحْبِهِ تبَطِّئ بهم عَنْهُ .

أين هم هؤلاء المعاتيهُ ؟

فى المَتْجَرِ والمَصْنَعِ والحَقْلِ يحترقُونَ فى العمل كما تحترق الشمعةُ لِتُضِئَ لمن حَولَّها فى بلاهَةٍ وإصرارٍ .

ألم يستيقن هؤلاء الأغبياء أن الحياة لا تطيب إلا بمداجٍ من لهوٍ جميلٍ بهِ تَتَجدَّدَ الحَيويَّةُ ، وينْتَعِش الفؤادُ ، ومنه يستمدُّ العزْم على مكافَحةِ العَيْش ومصاولة الأيام ؟ .

أيَتَخَلَّوْنَ عنه لهذا القزمِ الأحدبِ يُلْهِبُ رَغبَتَه فى الصَّيد كأنه سَوْطُ عذَابٍ ؟

وفيما هو يعدِّدُ مساوئَ تلك الصيفَة النَّكْدَاء ، شعَر بالخَدَر يَتَمَشَّى فى أوصاله ، فأطفأ الساهِرَةَ ، وتمدَّدَ على سريره مسترخِيَ الأوصالِ ، يَسْتَدْنِى لعَيْنَيْه نَاقِرَ السُّبَاتِ .

غير أن الخَدَرَ الذى شعَر به كان كالثَّعلَب المَرَاوِغ ، يَسْخَرُ منه ،

فلم يَغْمَضْ له جفنٌ ولم يُسَالِمْهُ تفكير ، فظلّ مُؤرَّقاً ، يتمثّلُ قاربَ الأحْدَبِ ، مُخْتَنِقاً بصنوفٍ من السمك الدَّسِيم دون أن يكون له فيه تصيبٌ .

وواتاهُ النومُ بعْدَ حينٍ .

وإذا هو فى غمرةِ أحلامٍ يتَبَدّى فيها ذلك القاربُ المُتْخَمُ بصَيْد البَحر وقد انبعث « طور أغلو أفندى » فى إثره يلاحقُه ويطاردُه ، والأحدَبُ يضْرِبُ بجدافيه مُمهداً لقاربه سَبِيلَ فرار ، فيتخلّف عنه ربُّ القصر ، يغالبه الموجُ ، ولا من لحَاقَ .

وأصبح « طور أغلو أفندى » يشْعُرُ بقُنُوطٍ ويأس ، وكأن حياتَهُ تجمُعَتْ فوق رأسه غمامةٌ دكناءُ محملةٌ بألوانِ الأسَى والحِرْمانِ .

وطَرَقَ مرساهُ مع الأصيلِ يستقبلُ المضيقَ بعينٍ تُبصُّ ، وامتدَّ به الانتظارُ ، وقاربُ الأحدَبِ لا يلُوحُ له ظِلٌّ ، حتى أوشك اليأسُ أن يتمكّن منه .

وفى ساعة المَغيبِ بدا القاربِ المعهودُ ، يتَخطّر على بساطِ الماء ، وانبرى الأحدَبُ يتدانى به من المرسَى مُتكلّفاً

الانهماكَ فى مَدِّ الشِّبَاكِ ورَمْيِ الشُّصوصُ ، لا يكُفُّ عن ترنيمٍ وغناءٍ .

وطَفِقَ « طور أغلو أفندى » يراقِبُهُ فى تربُّص وتَوَفُّزٍ .

وفَطِنَ النوتيُّ لذلك منه ، فعمد إلى شبكةٍ ألقى بها فى اليمّ يُوهِمُ النَّاظِرِينَ أن البحر تَجَنَّى عليه فابتلعها منه ، فتحمس «طور أغلو أفندى » يصيح بالرجل :

شَبَكَتُكَ أيُّها الصائدُ .

فانْحَنَى النوتيُّ يُحدِّق فى الماء ، وهو يتَكلّف الحسرةَ على الشبكة الضائعة ضارباً كَفًّا بكفٍّ ، يتحسَّر فى صوتٍ حامِي الجَرْسِ :

جئْنَا نصطادُ من البحر سمكةً ، فاصطاد هو منا شَبَكَةً ...

هكذا الدَّهْرُ ... يومٌ لك ويومٌ عليك !

فَعَلا « طور أغلو أفندى » بصوته يقول :

عوَّضَك اللّه خَيْرًا منهَا .

فجأر النوتيُّ :

الأرزاقُ على اللّه .

وما نَشب أن ضرب الماءَ بمجدافه ، وساقَ قاربَهُ يُلقِي على ربِّ القصر تحيَّةَ وداعٍ .

(١٤)

لم يكن « طور أغلو أفندى » في ليلته أقل ضيقاً مما كان البارحة ، تشابكت المرئيَّاتُ أمام عينيه وهو في إغفاءته تتقاذَفُ به أودية الخَيَالِ ، كما يتقاذف اللاعبُونَ في الحلْبَةِ ، بكُرَةِ المطَّاطِ فتغدو بين الفريقين حائرةً لا تَستَقِرّ .

وظفر بنفسه غائصاً في طباق الماء ، وقد تجلّى له بابٌ بلُّورى تتلاعبُ من خَلْفه أسرابٌ من صيدِ البحرِ ذات ألوانٍ ، فاقترَب يعالج فَتْحَه وقلْبُهُ يحدثُه أن يَسْطُوَ على ذلك الكنز .

وما وضع يده على مقبض الباب يديرُه حتى برز له حارسُ الكنز ، ماردٌ مائِيٌ مَهيبٌ ، تَتَشَعَّب من جَسَدِه اللَّحيم أيدٍ طويلةٌ كالخراطيم .

واستباح المارد « طور أغلو أفندى » تتحوى خراطيمُه الطوالُ على عنقه وخَصْره وساعدَيْه ، تَعْتَصِرُه اعْتصَاراً ، فتراخت أوصالُه ، وَفَتَر عزْمُه ، فاستسلم ، في غير مُقَاوَمَةٍ ، إلى قَدَرِه المحتُوم ، وقد اعْتَنَقَه الماردُ يهْوِى به إلى القرار ، فإذا بأنفاسه تَتَقطَّعُ ، ونبضات قلبه تتخَاذَلُ ، يسرى في كيَانه كلِّه

تَجَمُّد وانهيار .

واستجمع الرجلُ فُلولَ قوَّته ، يحمل صوتَه على صياحٍ ، طالباً النَّجْدَةَ ، فاحْتَبسَ صوتُه بالماء المتدفِّق من فمه المكروب ، وتماوت الصُّراخ على شفتيه ، فلم يتنفس بحرف .

وفى اللحظة الحاسمة ، حين أوْشَكَتْ الحياةُ تُودِّعُهُ ، خَفَّ النوتىُّ إلى نجدته ، يهاجمُ الماردَ ويحاربُه ، فى جرأة واستبسال ، فسدَّدَ إليه من سلاحه المشحوذ ، ضربةً محكمةً عاجلتْه فى مقتلٍ ، فانبثقت دماؤه من بين عينيه ، تَصْبغُ الماءَ بلونها القُرمُزِىِّ ، ومن ثَمَّ خمدتْ أنفاسُه ، وتداعَتْ خراطيمُهُ ، فتحرر « طور أغلو أفندى » من سَطْوته ليُجَابِهَ فى الأعْماقَ معركَةَ الغَرَقِ ، والنوتىُّ آخذ بيده يُصارعُ بطنَ الماء ، يُعينُه على خلاصٍ حتى لَفَظَتْه عنها أحْشاءُ البحر ، فطفا على الموْج ، يلتقى بالهواء فى عِنَاقٍ جيَّاشٍ ، يسْلُك مع السالكين سبيلَهُ فى الحياة من جَديدٍ ، ناجياً ، بفضلِ النُّوتِىِّ الأحدب من هُلْكٍ مُحَقَّقٍ ، ومَوْتٍ وشيكٍ .

وساعةَ ضمَّه المرسَى وقْتَ الأصيل ، كانت أصداءُ ذلك الحُلْم الكئيبِ ما فَتِئَتْ تتنازعُ فى رأسه ، فلبث يتَحيَّنُ قدومَ القارب ، وظُهورَ النوتىِّ ، مشْبوبَ الحنين .

ولم يَطُلِ انتظارُهُ إذْ ظهر القاربُ يتغايَدُ بين أحضان الموْج ،

فتهلّلتْ أساريرُه ، وصاح مرحّباً بِمَقدمِ النوتى الأحدب بطلُ الأمس فى مُعْتَركِ الرُّؤى والأحلام .

وتراحَبَتْ على فمه ابتسامةٌ وهو ينادى النوتيّ مُومئاً بيده :

ماذا صنع اللّه بك ؟ ... لعلك ظفرت من صيد اليوم بالعِوَض مما ضاع من شِباك البارحة ؟.

فتوسّط الأحدب قاربه مُشْرَئبًّا يُجيب ، وما زالت بينه وبين القصر أمواجٌ :

كان وَجْهُكَ عليَّ خيرا ويُمْنا وبركةً ... انظر ... تَوضَّحْ .

وجذبَ من بطن القارب سمكةً تملأ العينَ ، ورفع بها يَدَهُ ، فالتمعَتْ فى خيوط الشمس كأنها عروسُ البحر تشتمل بقَوسِ قُزَحَ ثوباً ، تُوَشِّيهِ زَهوةُ الألوان .

وهشّ « طور أغلو أفندى » لمرأىَ تلك السمكةِ الخلّابة وزَعقَ يقول :

من أين لك هذه الدُرّةُ الفريدَةَ ؟

فأجاب الأحدبُ غامزاً بعينْهِ ، وهو يُلقِى السمكةَ فى قاربه ، ويشير إلى عَرْضِ المضيق :

من هنالك.

فانبعث « طور أغلو أفندى » يستوضح جهيرَ الجَرْس والحماسُ آخذٌ به :

مِنْ هُناك ؟

- نعم ... البحر حافلٌ بالطيّبات !

وتدافَعَ القاربُ إلى مرسى القصر ، وتهادى « طور أغلو أفندى » على الدّرج العريض ، وامتدّ بصَرُه إلى بطن القارب ، يَرْوى عينيه ، بما احْتَضَنَهُ من سَمَكٍ ، ويتَلهّى بما تسلح بِهِ من جهاز وعتَاد ، مهتزٌ الاعطاف كما لو كان طفلا شهقَتْ أنظارُه بلُعبة طريفة لم يألفها من قبلُ .

وَظلّت عيناهُ لا تبرحان القارب ، يقلّب السّمك فى نَشْوَةٍ ، يَعَبّثُ بِمُعِدّاتِ القَنْصِ فى فرحة ، مُطْبِقاً عليه صَمْتٌ .

وقطع النوتىُّ السكونَ ، يسأل ربٌّ القصر :

ألَم يجرّب السّيدُ حظّه مع البحر بعد ؟

وتعاظم « طور أغلو أفندى » يقول ، وما انْفَكَ يَرْعَى القاربِ وما حوى ، لا معَ العين :

أمّا فى هذه الصَّيْفةَ فلا ... مَشاغِلى كثيرةٌ ... تأبى علىّ فسحةَ ساعَةٍ أو بضْعَ الساعة أضيعُهَا فى لهْوٍ .

- أوَ فِى البحر لهوٌ ؟ ... البحر مَشْغَلَةٌ ... إنه يُغْدِقُ المغانمَ والأرزاقَ ... لماذا تَزْهَدُ فى كَرَمِه ؟

وفَطِن النوتىُّ إلى ربِّ القصر ، وما يعتَلِجُ فى نفسه ، فانْكَفأ يقلّب السَّمك بين يديه يَشيدُ به :

ما أجمله ... ما ألطَفه !

وأسلم « طور أغلو أفندى » إحدى رجليه إلى جوار المجداف ، ومالَ بِثِقَله يُشْبِعُ عينيه ، فغمز النوتىُّ مجدافَه غمزةً خفيَّةً أثارت القاربَ ، فما هى إلاَّ أن سَقَطَ ربُّ القصر طريح الألواحِ كأنه سمكةٌ مَصيدَةٌ تختلِجُ بين الشباك .

وأسرع النوتّى إليه يتعهَّدُه ، وهو يفتعل الدَّهْشَة والاعتذار ، ويسوِّى للضيف العظيم مكانَ الشَّرفِ قائلاً :

الحمد لله ... لا بأس .

وتحامل « طور أغلو أفندى » على نفسه ، يتجلَّدُ فى شمُوخٍ وكبْرياء ، وهو يقْتَعِد من القارب عرشَه الجديد .

وانحنى النوتىُّ على ركبةِ ضيفه يدلّكُهَا ، فأغمض « طور

أغلو أفندى » جفنيه وكأنه تائهٌ فى آلامه لا يُحِسُّ بما يجرى حوله من حركة ، ولا يدرى إلى أى وِجْهَةٍ هو مَسوقٌ .

وحالت بين القصر وسيده أمواجٌ وأمواجٌ .

(١٥)

وعندما فاء « طور أغلو أفندى » إلى نفسه ، ألْفَى القارب فى عرْض الْمَضِيقِ ، فاختلج يستوحى النوتىَّ جَلِيَّةَ الأمر ، وكأنما افتقد الذاكرة ، لا يدرى فى غفلةٍ وعيِّه ما الذى يَحْدُثُ له :

أين نحن ... ؟ أفى البحر نسير ... ؟ ألستُ على مرسى القصر ماثلاً أصرِّفُ شَواغِلى ... ؟ من أحَلَّنى ذلك القاربَ العجيبَ ... ؟ ماذا صنعْتَ بى ... ؟

فطأطأ الأحدَبْ هامته ، وغمغم فى تخابث مواسياً رب القصر:

لم أصْنع إلا كلَّ خير ... ظننتُ أن سيدى فى حاجةٍ إلى نزهةٍ بحرية ، تخفِّفُ وطأة السقطة وترفِّهُ عنه .

وتنَفَّخ « طور أغلو أفندى » يقول فى تشامخ ، يوهمُ النوتىَّ برفْضِ الْعَوْن :

لستُ فى حاجةٍ إلى تنزُّهٍ وترفيهٍ ... شواغلى كثيرةٌ ... عُدْ بى من حيثُ صَدَرْتَ ... وقتِى بميزان كالذهب لا يحتمل العَبَثَ واللَّهو .

وجاز بهما ، أثناء ذلك الحِوار ، قاربٌ ماضٍ فى مُزْدحَمِ الماءِ ، مجهز للصيد على أكمل وجه ، فقال الأحدب على الفور :

رجالٌ ماضُون إلى الصيد ... أنتعقَّبُهُمْ ... ؟

ودون أن يظفر من « طور أغلو أفندي » بجواب الرِّضا ، حرَّك مجدافَيْه يُلْهِبُ بهما متْنَ الماء فانساق القاربُ يتأرجح ، وكأنه راقص يتمايل من طرب على لحن الماء ، تنشُده خَفَقات الموج .

وأشرقَ الحظُّ لـ « طور أغلو أفندى » ، وأكرمَ البحرُ وفادَته، فسخا له بالطيِّبِ من ذخائره ، فانْتعَشَتْ روحُ الرجل ، وقد تناسى بما تظاهر به من ألم فِى ساقه وأمسك بالخيوط يطوحُ بها يُمْنَةً ويَسرةً فى اهتياج وابتهاج .

وعاد القارب أدراجه إلى مرسى القصر ، وأخذ النوتىُّ بيد «طور أغلو أفندى » فى ترفُّقٍ يُعينُه على النزول ، وهو يقول فى بَسْمَةِ ملقٍ :

على رِسْلِك سَيِّدى ... لا تثْنِ رُكبَتَك .

فلم يسع « طور أغلوأفندى » إلا أن ظَلَع فى مِشْيَته ، يُكسِبُ وجهَهُ أماراتُ التجلُّد والصبر .

واحتواه المرسى .

وانبثق صوت النوتى يقول :

السمكُ سيدى ... ماذا أنا صانعٌ به ؟

ولم يمهل الأحدَبُ « طور أغلو أفندى » حتى يجيب ، إنما واصل حديثه يقول : سأبيعه لحسابِكَ يا سيدى .

وَترفَّع « طور أغلو أفندى » عن الإجابة مُتَصَنِّعاً التمنُّعَ ، فلاحقه الأحدَبْ بقوله :

سَيُعينُنَا الثمنُ على شراء شباكٍ للصَّيد وأدواتٍ .

فَهَزَّ ربُّ القصر رأسَه ، علامةَ الاستجابةِ والاستحْسَانِ ، دون أن ينبْسَ ، ثم يمَّمَ قصرَه يترفَّق فى سيره ، مُشرِقَ الجَبِينِ ، متوردَّ الوجنتين ، وتوَخَّى الأحدبُ ، مشْرَئِبَّ العنُقِ ، متعالىَ الصدْرِ ، يُنفِّذُ أمره فى سطوةِ الأباطِرة العُتاه :

موعِدُنَا غَداً ... قُبيْل الغروب ... لا تتخلَّفَ ...

واحتواه القصر يُغَيّبُه عن الأنظار .

(١٦)

سرّ « طور أغلو أفندى » بصيده فقد درّ عليه ربحاً جعل منه مالكاً لشباك وخيوط وشصوص ، غنمها فى يسر دون أن تعبث يدُه بمصون ماله .

وتوثقت بينه وبين الأحدب على ترادف الأيام وشائجُ أُلفة وترابُط .

وتلازم الرجلان تلازُم الظّلّ وصاحبه ، وأظهر الأحدبُ من حُسْن التّدْبير وبراعة الحيلة ، ما أذهلَ « طور أغلو أفندى » وجعله يركن إلى رأيه ويعوّلُ على مشُورَته .

فما تنحدرُ الشمس عن كَبِد السماء حتى يَحْملهُمَا القاربُ إلى عرْضِ المضيق يتعقّبان السمكَ الشرودَ ، صغر حجمُه أو كبُر ، فإنه صيد على كل حال .

وكثيراً ما كان البحر يَبْسُط لهما كفَّه ويجود بودائعه ، غيرَ أنه كالغانيَة متقلّبٌ لعوبٌ لا يؤمَنُ له جانب ولا يَستقر لَهُ حالٌ : حيناً يُغْدق وحيناً يَقْبض يده ويَشِحُّ .

واليوم عندما قصده « طور أغلو أفندى » وصاحبُه ، تأبَّى

عليهما وتمنّعَ ، فبقى القاربِ حائراً بين ضَفَّتَى المضيقِ ، وليس له إلى الصيد من سبيل .

إنه تائه على وجه الماء ، تارك خلفه خطاً رفيعاً من مياه مُزْبَدَة ، يتوسطه ذلك النوتى الأحدب ، مُحْتبِسَ الجَسَدِ فى سترةٍ زرقاء ، واستوت على رأسه قَلَنْسُوة غبراء ، على حينٍ تنفُختْ عضلاتُ ساعديه ، تتحوى عليهما عُروقٌ نافرةٌ وهو يهوى على المجداف يُزْجى به الماء ، وفى عينيه بريقٌ تتماثل فيه تباشير ثراءٍ موفور .

وانْتَبذَ « طور أغلوأفندى » ذيلَ القارب بوجهه المطَهَم وكرشه المنبعجة ، توسَّدَت فخذيه .

وانهمك فى إعداد أدواته ، وانْثَنَى بجرمه المَتَكتِّل على جانب القارب فى جُهْدٍ ، يهيِّئ شرائح الطُّعم يعمرُ بها خُيوطَه ، ويلقيها عَوْداً على بدء ، عَسى أن يواتيه البحرُ بما يفئ على نفسه الرِّضا والارتياح .

وشارفَ القاربُ « قلعة الحصار » شامخة السور ، عالية الشُّرفات وقد تسَنَّمَتْ ربوةً على حضْنى المضيقِ كانت فى حقَبِ الزمن عينُ السلطان الساهرةُ تردُّ عَنْه هجمات الغُزاة ، وتحفر من اليمُ قبوراً لسفائن المُعتدين .

وما فَتِئ القاربُ يطوفُ بصاحبَيْه ، ورَغَوات الماء من حوله يُدَغْدِغ بعضُها بعضا ، فتتشابك فى معابَثَةٍ ومناوشَةٍ حتى يفْنى بعضُها فى بعض كأنها رؤوس صِغَار طافيةٍ تتضاربُ فى نَزَقٍ .

ويتبدّى فى الفضاءِ سربٌ من طير البحر يشبه الحمائم البيضاء ، فاستبشر « طور أغلوأفندى » بطلعة الطّير ، ونَشط يراقبه مُحْصِياً عليه الحركَة ، إن حاد يمْنة تبعه وإن مال يسْرة اقتفاه .

والأحدبُ بين هذا وذاك ، يمتَثِل ، على مضضٍ ، لما يمليه «طور أغلوأفندى » من توجيه وإرشاد يحاورُ الطيرَ فى مسْراه المتقلّب ، تائها على وجه الماء ، كذلك الموجُ الزاخر ، دائبُ الحركة موصُول السّعى .

وساعة أسَفّ السِّرب على وجه الماء ، يتوسّدُ الموجات ، طفِقَ كل طائر يغمس منقاره المعقوفُ فى طيّات الماء ، يتقاضى البحرُ قُوتَه ، وتَهلّلَ وجْه « طور أغلو أفندى » واضطرب يقول للنوتى فى نشوة تشبه نشوة الانتصار :

قطيع من السمك ... قف ... لا حراك .

فتخلّى النوتيُّ عن الجدْف ، واسترْخى فى جلسته ، تاركاً للقارب العنان ، وقد حسر قلنسوته عن رأسه قليلاً ، وسَمَا بسبَّابته إلى جبهته ، فتطاير العرق فى الهواء ثم أخلد إلى لفافة تبغ يدخنها فى تلذُّذ واستمراء .

لم يخب ظن « طور أغلو أفندى » إذْ انبعث طائر من السرب يدُفُّ بجناحيه مصعّدا فى أجواز الفضاء ، ظافراً بسمكة تدلّت من منقاره ، تصارعُ الموت فى يأس ، فلحق به سائر الفوج ينازعه ما غنم .

وعجّل « طور أغلو أفندى » راميا بالخيوط فى البحر دَفْعة واحدة ، وتهيأ يُعدُّ نفسه للمعركة ، فى تيمُّن ووثُوق .

وتعالى فى الفضاء أزيز يحاكى زَمْجرة غاضب ، فتلفت «طور أغلو أفندى » يتفقد مصدر الصَّخب ، فلاحَ لناظرَيه ، زورقٌ بُخارى يجرى على اليم كخطْف البرق ، ومن حوله يجُنّ جنون الماء فى عربدة من موجات تُرْغى وتزبد .

وتعثّر قارب الصَّيد ، وعلا به الموج وهبط ، فاختل توازن «طور أغلو أفندى » واضطربت كرشه على فَخذيه كأنها قربةٌ تتمخَّض ، فسارع ينشب أظافره فى عوارض القارب يتماسك ويتوازن ، وكست سحنته غبرةُ الغضب ، عندما أصابه رشاش

يتطاير من جانب الزورق الجسور ساعياً سعْيَه ، يجْلدُ فى قسوةٍ وَجهَ البحر ، لا يتهيَّب تدافُعَ الموج .

فَغَمْغَمَ « طور أغلو أفندى » فى جَفْوةٍ ، وهو يمسح جَبِينه النَّدِىَ :

اختراعٌ سمج سخيفٌ ... دوىٌّ لا ينقطع ... وهديرٌ يشبه هديرَ مخْبول .

وعقَّب النوتىّ على الفور :

الحقُّ معك يا سيِّدى ... إلا أنه مفيد فى نفس الوقت .

وزَمْجَرَ ربُّ القصر :

كيف ... ؟

– ألا تَفْطِن وأنت يا سيدى الألْمعِى الأريب ، إن هو سُخِّر للصيد ، نالنا غُنْمٌ كبير ؟

– لا أفهم ... أوضِح .

– يا سيدى إن سُخِّر هذا الزورق للصيد هدانا ، فى طرفة عين، إلى مواطنِ السمك كأنه فى سرعته صقرٌ أو عُقابٌ .

فلم يَحرْ « طور أغلو أفندى » من جواب ، وجذب الخيوط يستبدل بالطُّعم غيرَه يزمجر مُحنقاً .

وأمسك الأحدب عن الكلام تتقافزُ عيناه إلى الزورق ، ويظَلُّ يلاحق طيفه الغابر ، موشكاً أن يطْفُرَ من الماء من غرور وخُيلاء ، فتتَرسَّم على معارفه بشاشةُ الرِّضا والاستحسان .

(١٧)

وانْسرحَ الأحدبُ تبرُقُ فى رأسه أطماعٌ فساحٌ ، تاركا « طور أغلو أفندى » يلعب بخيوطه كَصبىٍّ يتلَهَّى فى مَراحٍ وانبساطٍ :

آه لو أمتلكُ مثلَ هذا الزورق ، لأخضعَ البحرَ عَرْضاً وطولا ، ولغالَبَ السمكَ يجعلُه رهنَ شباكه لا يعزُّ عليه منهُ شيءٌ .

ما هى إلا بضعةُ مفاتيحَ يحركها فى يُسرٍ وإذا بالنُّشطة تنْساب فى أوصَالِ الزَّوْرق ، فلا يملك إلا أن يندفع فى كل صوْب وحدْب يُبارى الموج ، ويطوى صفحةَ البحر كبساط الرِّيح لا يعوقهُ فى مسراهُ سَدّ ، وما قيادته إلا إطارٌ رشيق ، حركَتُه طيِّعة لا يتطلَّب علاجه جُهْداً ولا عَناءً ، قادر عليها طفل .

آه لو ابتسمَ له الحظّ ليُصْبِحَنَّ مالكاً شبيه الجهازِ الجَسُورِ يَسْتَوى به على عرش الماء ، لكأنه فى دولة الصيد المتراحبَةَ صاحبُ تاجٍ وصَوْلجان .

وهل تُجيبُ السماءُ أمنيةً من هو مثله : نوتيٌّ رقيقُ الحالِ ، خاوي الوفاض ، مَهيضَ الجناح ؟ ولكن لا يأس مع الحياة .

فليتطلع إلى السماء ، يطرقُ بابها ، معلياً صوتَه في دُعاءٍ ورَجاءٍ .

(١٨)

مر بـ « طور أغلو أفندى » يومٌ شاقٌّ اصْطَلى فيه بلجاجَة قاصديه ، إذْ توافد عليه مع الصباح الباكرِ جمعٌ منهم كبيرٌ يُساومُهُ على حراسة القصر .

فقضى يومَه يماكس ويحاور ، طَوراً يعْلِي صوتَه ، وطوراً يَخْفِضهُ دون أن يقْطَعَ في أمر الحارس برأيٍ يستنيمُ له ويطمئنٌ به .

وساعة التقى الأحدبُ بربٍّ القصر وقتَ الأصيلِ على مألوف عادته ، ألفاه مستوفزَ الأعْصَاب جَهْمَ الحديثِ ، فلم يشأ أن يستوضح منه ما يشغَلُهُ ، وتركَهُ وشأنهُ حتى انساب بهما القارب تلاطفه أمواجٌ خِفافٌ ، ويصافِحهُ نسيمٌ وادع نَديٌّ .

وأحسَّ « طور أغلو أفندى » بهبَّة النسيم تتودَّد إليه ، وتتمَسَّحُ بوجهه المحتقِنِ ليِّنةً رخِيَّة ، كأنها على خديه لَثَماتٌ

حبيب ، فَنَدَت منه زَفرةَ كأنه يتخلّص بها من كرْب النهار ، ثم شخَصَ إلى صاحبه الأحدب يشكو له أمرَه قائلاً :

يا له من يوم كئيب ؟ ! ... كثُر نقاشه واحتد جَدَلُهُ حول حِراسة القصر ... كُلُّهم طامعون حسدةٌ ... لا هَمَّ لهم إلا الغلبةَ والفوزَ ... لقد خَرِبتَ الذمم وجحدتِ القلوبُ

فطأطأ النوتيّ يُهَمهِمْ على رِسل :

حقاً لقد تناقصَ الخيرُ وفسد الناس .

وتابع « طور أغلو أفندى » حديثَه فى صَوْتٍ مخفُوضٍ :

إنِّى فى حَيرَةٍ من أمرى ، لا أدرى كيف أَقطع برأىٍ فى شأنِ الحارس الجديد .

وأجاب النوتىُّ يكتُمُ سرورَهُ :

ولك العذرُ فى أنْ تَتَحَيَّر وتَتَهيَّبَ !

فأطرق ربُّ القصر فى صمتٍ .

وأردف الأحدب يُحذِّره ، ويُبَصِّره بعواقب التسرُّع قائلا :

القصرُ يحتوى على تحفٍ غاليةٍ وألطاف ثمان ... تُحتِّمُ دقَّةَ التَّخيرُ ، وسلامةَ التقدير .

وتنهد « طور أغلو أفندى » مُجَمْجِماً :

ثقتى بالناس قليلة ...

الحقُّ معك .

لقد خبرت فيهم الطّمع والتّغالِى ... إنهم شرهون لا تُمْلأُ لهم عيون .

فقال النوتىّ يتملّق رَبّ القصر :

ماذا يبغون ؟ ألا يكفيهم من نعيمِ الحياة مأكلٌ طيبٌ ومسكنٌ كريمٌ ؟ !

وحَمْلَقَ فيه « طور أغلو أفندى » ورن صوتهُ مهْتَاجاً ، ويدهُ تُساعده بالإشارة على توضيحِ ما يَلْفظُ :

يَبْغُونَ المال ... من حرام أو حلال !

– وأىُّ خَيرٍ فى المال ... أصْدُقُكَ القولَ يا سيِدَى ... أهلُ هذه القرية منهومون لا يشبعون ... يجب أن تتشدد وتتحرز ... لا تَلِن ...

لا تُول ثقتك إلا من هو أهلٌ لها .

– صدَقت ... صدَقت ...

وضرب « طور أوغلو أفندى » بأنظاره فى عرض المضيق ، وأخذ يفْتِلُ شاربَه ،ويَتَمَصْمَصُ شفتيه ، وحينا يقرُضُ أظفاره ، كأن إلهاماً هَبطَ عليه ، يخطُّ له المنهجَ الذى يسلُكُ .

وبقى على هذا النحو حتى صافحه صوت الأحدب يقول هَيِّن النَّبْرة :

تَرَسَّلَتْ على الأسماع فى شأن الحراسة ، والعُهْدَة على الراوى ، ألوانٌ من شائعاتٍ وشتاتٌ من حديث .

فقاطعه « طور أوغلو أفندى » يحدُّ فيه النظر وقد تملَّكَتْه شواغِلُ التفكير ،يستوضح فى فضول :

ما الذى نما إلى علمك من ثَرْثَرةِ الأحاديث ؟ ... وماذا تخُوضُ فيه الألسُن من لغو ؟

فَتمنَّع الأحدبُ يقول :

لا تُحْرِجنى يا سيِّدى ... إنها ضَربٌ من التخمين ليس أكثر .

واندفع « طور أغلو أفندى » كالقذيفة يحثُّ النوتىَّ بقوله :

بل فأتِ بكل ما عندك من شائعاتٍ .

فأُحْجمَ الأحدب ، وتقاصر عن الإجابة ، إلا أن « طور أغلو أفندى » ، حاصَرهُ فى لجاجة ، فتلفَّظ النوتىّ يقول :

إن صح ظَنُّ الناس فالحارسُ السابقُ رحمهُ اللّهُ وطيّب ثَراه ، كانَ يَتَمتَّع بمِيْزاتٍ عظيمةٍ متعدّدَة .

واستوقفه « طور أغلو أفندى » يسائله :

أهذا كل ما وعيتَ من حديث ؟

- البته ... يا سيدى .

- إذن فعجِّل بالقول .

- تواترت ، بين أهل القرية ، أنك يا سيدى كنت تتساهل مع حارسك وتكارمه ... حتى أصْبَحَتْ ثمار الحديقة ، كما يَزْعمُوُن، غُنْماً لا يُحاسَبْ عليه ... وتدفئة الشتاء نَفَقَتُها عليك ... يَغْرمَ فيها سَيدِى ما يَغرم دُونَ وجْهِ حقّ ... وحظيرةُ القوارِب فيها لمِرْكبِه نصيبٌ وحظّ.. وأن كل ذلك كان يعود عليه بربح كبير.. وطلع صوت « طور أغلو أفندى » من صمته يقول:

أهذا ما يزعم القوم ... ؟

فازدرد الأحدبُ ريقه يُغَمْغِم :

هذا طَرَفٌ ممِا يتداوله القوم من أقاويلَ فى الحارس والحراسة .

- أعِنْدك من مزيد ... ؟

- لا يا سيدى ... ولكن .

- ماذا بعد ذلك من أقاويل ... ؟

ثَمَّة أمرٌ مُهِمّ وجب عليك الوقوفَ عليه .

- أوضح ! ...

- أهلُ القرية يتكهّنون بمستقبل الحارس الجديد .

- وبم يتكهنون ... ؟

- يتساءلون عن ذلك النعيم ... هل يفوز به خليفةُ الراحل المحظوظ ؟

فأومأ « طور أغلو أفندى » دون أن يُخْرِج من لفظ ، خَشْيَة أن ينزلق لسانُه بقول ، يُؤخذ حُجَّةً عليه إذا أحب أن ينتقص بعض هذه المَيْزات من خليفة الحارس القديم .

وأكمل النوتىُّ كأنه يترنَّم أو يشْدو :

هذا كثير ... إنهَ سخاءٌ ، واللّهِ منك كبير .

فتعاظم « طور أغلو أفندى » وتَنفَّخَ ، ثم رَمَى بشباكه إلى البحر ، يستمرئ ثناء النوتيِ فى تَفَاخُر وزهو .

(١٩)

وارتد القارب إلى مرسى القصر .

أما « طور أغلو أفندى » فقد حاصره التفكير وضَيَّقَ عليه ، تَتَبدَّى منه حركاتٌ مُهَوَّشةٌ ، فيهتز القاربُ ، ويترنح تحت ثِقَل ذلك الجِرْم الممتلىء البدين .

وطمح النوتىُّ بنظرة إلى رب القصر يُنَبِّهه فى أدب وملاطفة إلى أن القارب يتطلَّبُ المعونةَ على أن يستقيمَ سيرهُ ، فالمضيق يُفْسِح صدره للبوارج والسفنُ تعبره مثيرةً دفعاتٍ من موجٍ رَجْراجٍ .

فما تلاقت نظراتُهما واشتبكت حتى أصبح « طورأغلو أفندى » غير قادر على كتمانِ سرِّه ، وتدفَّق يُصارح النوتىُّ على عجلٍ كأنه يخشى أن تنحاش العبارات بين شدْقيه :

اسمع ... لقد اخترتُكَ حارساً للقصر .

قال قولَه هذا ، وسكت يَقْرِض أظفاره لا يحسن الترابط .

وارتجَّ على الأحدب ، وقد باغتَتْه المفاجأة ، فظلَّ فاغراً فاه ، يرنو إلى « طور أغلو أفندى » فى تبالُهٍ .

فيهتَزُّ ربُّ القصر يقول : الاختيارُ موفَّقٌ إن شاء الله .

ويُطْرِقُ لحظات ثم يستأنفُ حديثَه :

اخترتك لأنى عهدت فيك الأمانَة والصدقَ والاخلاصَ .

واستردَّ الأحدبُ أنفاسَه ، وتحركتْ شفتاهُ بقوله وهما لا تَضْبِطَان مخارجَ الألفاظِ :

إنه لشرف عظيم أن أكون في خدمتك يا سيِّدى ... ولكنك باغتَّنى بهذا الاختيار ... ألا تَدَعْ لى مُهْلَةَ تفكير ؟

- لا حاجة لك بالتفكير .

- لا يخفى عليك سيِّدى أن الحراسة أمانةٌ وستَقْتَضِى أن أتركَ الصيدَ .. مِهْنَتِى التى أعُوِّل عليها وأتكسب منها العيش.

- لك أبناء فيما علمت ... سيحلُّون مكانك فى الحراسة ريثَمَا تعود من صَيْدِكَ .

- لا أثقُ إلا بنفسى ... دَعْنى سيدى أتروَّى فى الأمر .

- لا تنس أن تَضَع فى ميزانك ثِقَتِى بك ، وتَعْويلِى عليكَ ... أمامك خمسُ دقائق ، لِتَقْطعَ برأى .

- أمهِلْنى إلى غدٍ .

- ولمَ التَّسويفُ ...؟ خيرُ البِّرِ عاجلهُ ، الشروطُ معروفةٌ ، متَّفقٌ عليها .

وأحدّ الأحدب النظر إلى « طور أغلو أفندى» يُهَمْهِم :

- الشروط ...؟

– أنسيت ؟

– لا ... ولكن ...

وسارع « طور أغلو أفندى » يُعَدِّد الشروط ، يُحْصِيها على أصابعه :

وَقُود التدفئة فى الشتاء على نفقتى ... حظيرةُ القوارب مباحةٌ لقاربك ... وثمارُ الحديقة لك فيها حظٌ وقَدر .

وتهدّج صوتُ الأحدب وهو يُغَمغِم فى مَسْكَنَةٍ متظاهراً بالتعجُّب :

هذا سخاءٌ منك عظيم ...

– إذاً اتفقنا .

ومدّ « طور أغلو أفندى » يَده إلى النوتىّ ، فَسَلَّ الأحدبُ يديه من المجداف ، وأقبَل يُمسك بِكفِّ سيدِه ، ويشدُّ عليها قائلا فى تأدُّبٍ بالغ :

لن أخالفَ أمرك ... أو أعصِى لكَ مَطْلباً ... ستجدنى يا سيِّدى فى خدمتك وإنه لشرفٌ كبيرٌ ... وإنى لفخورٌ بما أولَيْتمُونى من ثقة غالية ، أُبَاهى بها وأعتَزُّ .

وكان القارب قد شارف مرسىَ القصر ، فصدر عنه « طور أغلو أفندى » تخفُّ به خطاه وقد انزاح عن كاهله عبءٌ ثقيلٌ

أما النوتيُّ فساق قاربَه ، ينْبَعِثُ من شفتيه صفيرٌ يحاكى فى نَغَمه شدْوَ النَّاىِ الطَّرُوب .

وافترق الرجلان تتلألأ فى عين كلٍّ منهما آمالٌ رِطاب .

(٢٠)

تربع النوتيُّ على عرش الحراسة ، ودانت له دولةُ « طور أغلو أفندى » فأصبح بين غَمْضَة عينٍ وانتباهتها جليساً أنيساً لربِّ القصر ، مسموعَ الكلِمة مقبولَ المشورةَ ، فى كل ما يعرِض للقصر من شئُونٍ .

لا يتخلَّفُ عن مصاحبة رب القصر ، ولا يأنَفُ عملاً يُؤْمَر به ، ومن ثَمْ انفَتَلَ يُجْهِدُ فكرهَ ، ويُعْمِلُ عقله فى كل ما يوفِّر لـ « طور أغلو أفندى » حياةَ الدَّعة والاطمئنان تراوده نفسُه حيناً بعد حينٍ أن يغزُوَ الرجلَ من جميع أقطاره حتى يتمكَّنَ منه ويتسلَّطَ عليه .

واتفق أن كان « طور أغلو أفندى » خالياً إلى مرساه ، ذاتَ أصيلٍ ، يَشْغَلُ نَفْسَه بالتحدُّث إلى نوتيِّه ساعةَ مَرق أمَامَهُم زورقٌ بخاريٌّ يعلُو هَديرُه ، ويهتزُّ البحرُ لدَبيبه .

فانبعث ربُّ القصر يتابعُه بعينيه وقد اشْتَبَكَتْ أنظارُه به ، ينفرِج فَمُه فى ابتسامةٍ تَنِمُّ عن إعجابٍ خفِيٍّ .

وطالع الأحدبُ الإشراقَةَ ، تُرَصِّعُ جبينَ سيده ، فَتَنحنَحَ يقول ، نَاكِسَ الرأس يتلاعب بأزرار سترته :

انظر إلى الزورق سيدى ... إنه سريع والغُنْمُ به مكفولٌ .

يميناً أن « طور أغلو أفندى » سئِمَ قاربَ الأحدب الذى يتحرَّك فى خطواتِ السلحفاة .

أنَّى لتلك السلحفاة المُتَباطئَة أن تنيله بُغْيتَهُ ؟

وسرعان ما مَسَّت كلماتُ الأحدب قلبَ « طور أغلو أفندى » لكنه تراءى كأن الأمر لا يَعْنيه فى قليلٍ أو كثير قائلاً :

مَهْما يكن من سرعة ذلك الزورق ، فإن السمك يتهيَّبُهُ وينْفرُ منه .

– السمكُ غِرٌّ أبله ... التَّمْويهُ عليه يسير .

– إنه يخشى الأزيزَ والدَّوِيَّ .

– فى استطاعتنا أن نُرَوِّضَ ذلك الزورقَ البخُارى ونجعلَ منه حَملاً وديعاً يلتف حوله السمك ويأنسُ إليه .

لم يعقب « طور أغلوأفندى » على هذا القول ، فاستأنف الأحدَبُ :

لا أكذِّبك سيدى أن ثمنَه كبير ... غير أن العقلَ المدبِّرَ فى مقدُورِه أن يُعوِّضَ الثمنَ بما يوفِّره الزورقُ من كَسْبٍ .

فدَاناهُ ربُّ القصرَ يُرْعيه أُذُنَه ، وقد تسرَبتْ كلماتُ الأحدب في أقْطَار عقله الخصيب ، فهب بين ضلوعه شحُه يغريه بالاستماعِ والتَّدَبرُّ :

الأمر هين ... سيدى يشترى الزورق ... وأنا هنا لأسْهَر على الصيد ...إن أجدب مكان تطرَّقتُ إلى غيره ... لا بد أن نفوز بصيد عظيم ... وأمامنا بعد ذلك السوق ...أبادرُهَا بالسَّمك المصيدِ .

وتَقَلْقَلَ « طور أغلو أفندى » فى مجلسه ، يتمايل يَمْنَة ويسْرة وكأنما هو فى مَهَبِّ نغمٍ شجِيٍ ، وسطعت على ثغره ابتسامةٌ رحيبةٌ وهو ينطلق بقوله :

شيء جميل !

وأظَلّه الصَّمْت ، كأن فكرةً جديدة طرأت عليه ، فانقَشعَت البسمة عن شفتيه ، وبان على محيَّاه جدٌ :

قل لى ... هل الربحُ محَقّقٌ ؟

– وهل فى ذلك ريب ؟! ... لقد خَبَرْتُ البحرَ شبراً شبراً ... وسأعرف كيف أستخلص منه ما يَخْبُؤهُ من ذخائر ، تصلنا فى ركبِها المُضيِء ، بثَرَاءٍ مُحقَّقٍ وشيك .

واطمأن « طور أغلو أفندى » بكلام الأحدب ، وتَطَلَّق وجْهُه عَوْداً على بدء ، وأنفذ صوته قائلاً :

نفكر فى الأمر ...

(٢١)

وفى صبيحة الغد والنهار فى مؤتنفه ، كان « طور أغلو أفندى » وصاحبُه النوتىَ فى قلب المدينَة يطْرُقان مَتْجراً للآلات البخارية .

واحتواهما المتجر ، فطفقاً يَجُوسَان خلاَل الزوارق المعروضة يتفَحصَّان كلا منها فى دقة ونشاط .

وملك عينَ الأحدب زورقٌ طويلٌ عريض ، يزْهُو بطلائه الأحمر ، وقد انساب زجاجُ مقدّمته فى تَقويسٍ ، يصُدُّ رشاشَ الماء وعَبَثَ الهواء ، وعلى حَيْزُومه قَامَت ساريةٌ ، تدلىُّ منها مصباحان هما للزُورْق فى حُلْكَة الليل منَار هدايةٍ وإرشَادٍ .

أما باطنُ الزورق فهو محشُوٌّ من مطَّاط وثيرٍ مكسو بجلدٍ أخضَرٍ متعة للناظرين ، وفى مؤخَرته مَقْعد مُرِيحٌ موصولٌ بلولب يُيَسرُ له الحركَة ، لا ينحاش عن الاتجاه الذى يُصَوِّب إليه ، وقد أحيط بنطاق من أدْم متين يُجنِّب مَن يَعْتليه خَطر السّقوط حين ينْشَب بينه وبين السمك تحاورٌ وصِراع .

ومن وسط الزورق يَتَسامَى عمودُ أملسُ فارهٌ علقت برأسه حبائِل كأنَّها المشانِق نُصبَتْ لتلقّيِ السمك المصيدِ . فَطفِق

النوتيّ يتوسمه تارةً تسبحُ عليه نظراتُه ، وطوراً يتحسّسُ جوانبَه ، وربما صَعَدَ إليه وهَبَط منه في خُطاً مرِحة ، وأعطافُهُ يَتَرَحان من إعجاب وشوق .

يا لِهذا الزورق الخلاّب ، لكأنه حوتٌ من الحيتان الضّارية أو واحد من القراصنة لصوصِ البحرِ ، دَرَبَ على انتهابٍ وسلب ، يخافُه البحرُ ويخشاه على ذخائره وغَوَاليه من لؤلؤ ومرجان ولحمٍ طَرِيّ .

وأومأ « طور أغلو أفندى » إيماءة الرِضا حين وقعت عينُه على عينِ النوتيِّ وهما يتبادلان الرأى فى صمت .

وأوشك ربُّ القصر أن يتوخّى التاجر ، يتعرف منه الثمن ، بيد أن النوتىُ أنْظَرَهُ بغَمْزة عينٍ أن يكُفَّ عن صاحبِ المتْجر ، ويُخْلىِ له حَلْبة النضالِ .

فنزل « طور أغلو أفندى » عند إرادة أمينه وانْزوى يذْرع الحانوتَ فى جيئةٍ وذُهُوب ، مُهتاجَ الوُجْدان ، يقْرِض أظافره ، وصدرُه يجيش عَزْماً على اْقتناء الزورق ، والفوزِ به ، وإن غلا مَهْرُهُ ، وكأنه صبيٌّ ركبته رعونة النَّشوة لمرأى لُعْبة جديدة ، وقعت فى قلبه ، فبنى العزْم أن يستحوز عليها ويظْفرَ بها غيْر مُبالٍ بما يتكلفُه فى سبيلها من مَغْرم وغَبْنٍ .

وحين انبرى النوتى للتاجر يجادلُه فى سعر الزورق ويداوره ،

استشعر « طور أغلو أفندى » حَنَقاً يتملَّكهُ ، وكأنهَ طوى السِّنين القَهْقَرى إلى صباه ، يوم لم يكن قد تخطى بعد سنِّيه السبْعَ ، إذ قصد فى صُحبة أبيه متجراً يبيع للأطفال اللُّعَبَ والألطَافَ .

إنه يتذكر تلك اللعبة الطريفة التى راقَتْه ، فتشبث بها فى إصْرار وعناد على الرغم من زَجْرِ أبيه ، ورَكَب رأسَهُ يزداد باللعبة من تَشَبُّثٍ وإلْحاف .

وتَغلَّبت إرادة الأب ، فجذبَ ابنَهُ يغادر به المتْجَر وهو يتوعَّده ويصخُب عليه ، ومَضى الولد باكيَ العين ، كسيرَ الخاطر ، حتى أوى إلى فراشه مُضْرِباً عن عَشَائه ، تغْتَاله الحسرةُ ، ويقتُله الحزن ، مؤرَّق العين ، مشغولَ البال ، لا تبرح خَيالَه اللعبةُ الطريفةُ التى طارت منه .

وتمثَّل له أمينُه الأحدبُ فى يومه كأنه أبوه بالأمس البعيد ، وأحسَّ نحوه بغيظ كظيم .

واستهْدَفَ النوتيَ صاحبَ المتجر يعلن له :

الزورق رائعٌ دون شك ، ولكن الثمن مغالىً فيه ... إن لم يُعْجبْكَ ما عرضناه من ثمن خرجْنا نستخبر السوق .

وعقب صاحب المتجر فى تظرف وتوكيد يقول :

هذا الزورقُ أحسنُ ما تَعْرِضُ أسواقُ « اسطامبول » لن تجدا له مثيلاً فى متجر آخر ... وثمنُه معقول .

فاشْرأبَّ الأحدب يُمَاكس :

إن وعدتنا أن تكارمنا فى الثمن عُدنا ... موعدُنا الغدُ .

وجذب النوتىّ « طور أغلو أفندى » من يده ، فأسلس له قياده فى يأسٍ وكأنه الطِّفْلُ الذى لم يظفرْ بلُعبته ، فَمَضَى يُساير الأحَدب مكروب الصَّدْر ، مغلوباً على أمره ، لا يُحْسِن الخطو .

واحتواهما السَّبيل ، فانفجر « طور أغلو أفندى » يُدَمْدِمُ :

سوف تُفوّتُ علينا الفرصَة ... من يضمن لنا بقاءَ الزورق إلى غد ؟ ... ربما اشتراه اليوم راغبٌ فيه .

فَربَتَ النوتىُّ كتفه ، وصوتهُ يقول حازِمَ النبرة :

لن يفوز به أحدٌ غيرُك ... دعنى أتصرَّف ... إنى حريص على مالك ، وكفيل بالتاجر ألَيِّن عِناده .

فهزَّ « طور أغلو أفندى » كتفيه فى رُعونةٍ وامتعاضٍ ، وسايَر أمينه الأحدبَ فى الطريق ، وما فتىء الزورق البخارى يتلألأ لناظِرَيه ، كأنه يعاتِبه فى بُخْلِه عليه وتفريطِه فيه .

أما النوتى فَدَرَجَ فى خَطْو ثابت ، تملأ نفسَه الثقةُ بأنهُ مستَحْوِذٌ على الزورق فىَ غده دونَ رَيْبٍ .

(٢٢)

وبات « طور أغلو أفندى » تَغْتالُه حُمّى التفكير .

يَالَهذا الزورقِ البخاريِّ الخلاّب الجَسُور ... أين منه قاربُ الأحَدبِ المضَعْضَعِ تلك السلحفاةُ الكسولُ ؟

إنه ليعتلى ظهرها كل يوم فى ملالَةٍ وفُتُور .

لا مرية أن الزورقَ سيُتيحُ له ، إن اقتناه ، أن يَبْسُطَ سلطانَه على المضيق ، وما بعد المضيق ، وربما تعداه إلى أعالى البحار يرفرف على غَوارب أمواجه عَلَمٌ يحمل شارتَه بين ما يُرَفرف عليه من شاراتٍ زاهيةٍ تحمل علامات مميزةً لأصحابِ الأساطيل ، وأثرياء البحر.

ثَمَنُهُ ؟

كبيرٌ ولا شك .

الأحدب له العُذْر كل العُذْر فى المُساوَمة والمُماكَسةِ .

ولكن ما ندفعُه اليوم محدوداً معدوداً ، سَنجْنيه غداً بلا حدٍ ولا عدّ .

ولا يلبث ربُّ القصر أن يَرِيمَ سَرِيرَه ، يخطو فى حُجرته خطواتٍ متسكِّعَةً لا تفارق اللفافةُ شَفَتَيهْ ، وقد مضى الليل إلا أقله .

وقُبيْلَ الفجر قصد « طور أغلو أفندى » منزل الحراسة مكتملَ البزّةِ ، وذهب يتفقد النوتيَّ ، فألفاه فى الحديقة أرقاً ، مُهْتَاج الفكر ، نَبَى به فراشه ، فخرج إلى البستان يَسْتَرْوِح بنَسيمِ الليل المُفْعم بأرِيجِ البحر ، وقد افترش العشْبَ النَّدىُّ ، ومنْ حوله وعاءٌ من فَخَّار فى لون الأرض ، ترصَّعهُ جَمَراتٌ متوهِّجة ، استوى عليها إبريق الشاى ، يتصاعد من مائه المحْتَبس بخارٌ موصولٌ .

فجَالسَ « طور أغلو أفندى » نوتيَّه الأحدبَ ، يقاسمهُ الشَّرَاب الساخنَ فى صَمْت يُحَدِّجان السماءَ بنظرات حامِيَة كأنها القذائفُ المُنْطلقةُ ، فُصلَتْ عن عينهما ، فى غَبَشة الظَّلاَم ، تَصْدعُ الليلَ ، وتَحُثُّ الضِياءَ على غَزْو الوجود ، ممهدة لَها طريقَ النُّصْر فى حَشْدِ نور الصَّباح الفتيِّ .

وجمعت بين الرجلين غايةٌ واحدة ، وأَلَّفَ بينهما هدفٌ مشتركٌ ، ألا وهُوَ الزورقُ البخاريّ ، فإن هما خرجا عن صَمتهما ، يَبْغيان إيضاحَ ما يَعتلج فى صدريهما من أمانٍ وأحاسيسَ ، يداولهُمَا سمرٌ مهوّشٌ وكلامٌ مبتُورٌ ، وفى متاهات الأحاديث تَضيعُ الفكرةُ حتى تَتَلاشَى بينهما لا تُفْصِحُ ولا تَبين .

وبَيْنَ آنٍ وآنٍ ، يزفُرُ « طور أغلو أفندى » زفرةً مكلومٍ ، وتَهْوِى أناملُهُ على شَعَرات شاربه ، يجتثُّها من جُذورها ، وعيناه مُشْرَعَتان إلى السماء ، كأنما تلحّانِ على النُّجوم أن تغُورَ .

(٢٣)

واصطبح بهما متجرُ الآلاتِ البخارية .

وجهرَ النوتىُّ يُسَاوِم ويجادل ، لا تلينُ له قَناةٌ ولا يَرْجِعُ فى كلمةٍ تَفَوَّهَ بها ، أو عَرَضٍ علَى لسانه أجراه ، على حين جلس « طور أغلو أفندى » راجفَ القلبِ ، يَرْقُب المعركة ، ويتعجلُ نِهَايتَها على أىِّ نَحْوٍ تكُونُ .

وأخيراً نطق صاحب المتجر يقول وهو يُلَوِّحُ بيديه :

ليسَ فى مُسْتَطاعى ، أن أتساهل أكثرَ مما تساهَلتُ ... كفانى ما انتقصتُ إكراما لَكُمَا .

واهتزت حَدَبَةُ النوتى فى غضبٍ موهُومٍ ، وتَوخّى سيدَه بقوله :

إنَّ صاحبنا لا يريد إتمامَ الصفقة ... هيا بنا إلى متجرِ « صَمْويل » فإنه تاجرٌ يعرف كيف يُحَاسِنُ عملاءه .

وفيما هما يَمْضيان إلى الباب ، متقاصرةً خطاهما ، تَرامَى إلى سمعهما صوتُ التاجر يناديهما ، جهيرَ الصوت من مكانه القصِىّ :

عِلى رسلكُمَا ... لا يتمُّ البيعِ والشراء على هذا التَّحْجِر.

سأزيدُ لِلخَصْمَ خمسةً فى المَايَةِ ... إعزازاً ومحبَّةً ... فإن قَبلتُمَا ... فأنْتُمَا الرابحان .

فتحمَّسَ النوتىُّ يقول ، وهو يمدُّ رجليه نحو الباب ، ويدفع « طور اغلو أفندى » فى أثَرِه ، فيتعثَّرُ الرجل فى بَدَانَته ، يغُزُّ السير على تمنُّعٍ وكُرْهٍ :

وخمسةً أخرى ... أنت فى كلتا الحالتين الكسبان .

وقارَبتْ عَتَبةُ الباب أن تُسَلِّمَهُمَا إلى الطريق .

ولكن التاجر لاحَقَهُمَا يقول :

تَأبيَان إلا أن أبيع الزورق بأصل ثمنه لا يكون لى منه كسب ؟ ... فليكنْ .. والعوَضُ على اللّه .

وارتدَّ « طور أغلو أفندى » إلى مجلسه يستوى عليه ، وأمسك بحافظَة نقُوده يَعْبَثْ بها ثم وضع أمام التاجر والنوتى الذى لحق به رُزمة من أوراق النقد وهو يُهَمْهِم فى تَحَرُّجٍ :

هاك بعضُ الثمن ... فى غدٍ نُوفى لك ما فضَل .

وفرغ التاجر لرزمة النقد يحصيها عداً ، ثم غَيَّبَها فى جيبه ، وانكبَّ يُدَوِّنُ سند التَّسَلُّم قائلا :

عَقْدُ الشراء يقتضى استيفاءَ بعضِ المعلومات .

ولما رفع رأسه ألفَى « طور أغلو أفندى » من حول الزورق يطوف به وهو يحدُّ إليه نظراتِ زهْوٍ وفَخَارٍ .

ونشِط النوتىُّ يجيب البائع :

فى غد أعودُ إليكَ بكل ما تُريد لتحرير العَقْد ، واتخاذِ الأهْبَة لنقل الزّورقِ .

ثم تناول السَّنَد ، يدسُّه فى صَدْرِه ، وما أسْرَع أن ذَهَب إلى « طور أغلو أفندى » يزُفّ له الْخَبَر :

لقد تمَّ كُل شئ ... هيا بنا ... مبارك ... مبارك .

وأخذ بيده يشدُّه إلى الباب ، ولحظةً غادَر المتجر ألْقَى على زورقَة الحبيب نظرةً جائعةً وكأنه يبتلعُه بعينَيْه .

(٢٤)

تلقَّفَتْهُما السيَّارة الحافلةُ ، فجنحَ الأحدَبُ « لطور أغلو أفندى » يُخافت بالقول :

أرأيتَ كيف تكون المساومة ؟

فهينم ربُّ القصرَ :

لقد تركْتُ لك الأمر تتصرَّفُ فيه بخبرتك ولم أشكّ فى حسن تصرُّفكَ .

لقد حمّلتنى الأمانة فأديتها بما يقتضيه الشرف ، ويسكن إليه الضمير .

ومرقت السيارةُ الحافلة تختزل الطريق مُهَدْهِدَة راكبيها بهزاتها الموصولة ، فما عتّم « طور أغلو أفندى » أن غشيتْ عينيه إغفاءةُ طمأنينةٍ واسترْخاء .

أما النوتيُّ فانكمش فى مجلسه يتداخل بعضُه فى بعضٍ ، وقد طوّحَ برأسه إلى الخَلْف يُريحه على حافَّة المقعد ثم أسدل قَلَنسُوته المُغْبَرَّة على عينيه ، مُطلقاً لفكره العَنَان ، يَرْتَعُ فى وادى الأخْيلة والأطْياف .

وسرعان ما زَفَّ إليه النُّعَاس عرائسَ الأحلام ، وقد تراءى فى مَتْجر الآلات البخارية أنيقَ البِزَّة ، والتاجر يَخفُّ إليه مُرَحِّباً به ، مكرما وفادَته ، مُدْنياً منه الكُرسيَّ الرحيبَ ، يدعوه إليه ، فى تَوَدُّدٍ ومُلاطَفةٍ ، فلا يملك إلا أن يقتعدَه فى تَنَفُّخ وانتقاش .

وما هى إلا أن يُبْرِزَ للتاجر ما بقَى من ثَمنِ الزورق ، وهو يُمْلِى عليه اسمَ المُشْتَرِى ، فَيَسْبِقُ إلى لسانه اسمُ ابنته « فورتونيه » العزيزة فى تشدُّق واعتداد .

ثم تُسْفِرُ له أخيلةُ المَنامَ ، عن مَتْن البَحْر يشقه الزورق الجسورَ وهو مُقْتَعِدٌ منه مكانَ القيادة كأنه مَلِك يتبوأ سريرَ مُلْكه عليه مَهَابَةٌ وجلالٌ ، وقد تَبَوَّأت قُرَّةُ عينيه « فورتونيه »

المَقْعَدَ عن كَثَب منه ، ضاحكَةَ السِّن ، مُسْتَبْشِرَةَ الوجه ، يتطاير شَعْرُهَا السَّبْطُ مع الهواء ، وهى فى لَبُوسِ البحر تمرحُ فى أعْطاف نعمة ورخاء ، والزورق يمرُق بهما يُناطِح الهواءَ ، ويشُقُّ اليمَّ ، فيصيبُهُما رذاذ يزيدهما من إشراقةٍ وبشرٍ .

(٢٥)

وتوقفت السيارة الحافلةُ .

وصاح محَصِّلُ الأجور ينبه الركابَ إلى محطَّة الوصُول ، فاستيقظ النوتىُّ ، وانْثَنَى على « طور أغلو أفندى » يُقبِّلُهُ من نُعَاسه . وأسرعَ الرجلان إلى الباب يُصْدِران عن السيارة الحافلة وهى تُوشك أن تستأنفَ المُضىَّ .

وما التقى النوتىّ بأسرته حتى جَلْجَلَ صوتُه يُنْهِى إليْهِم النبأ العظيمَ فى صوت محبُورٍ :

ألا تباركون ؟ ... لقد اقْتَنَيْنَا زورقاً بخارياً ليس له فى المَضيق ضَرِيبٌ .

وتقدمت أسرةُ الأحدب من ربِّ القصر ، كلٌّ فرْد منها يُزْجِى تَهْنَئَتَه ، بحَسَبِ ذَوْقه وفنه ، ووقف « طور أغلو أفندى » بينهم وقْفَةَ الزَّعامة ينثرُ على رَعيته بسمات الرِّضَا والانْشراح .

وانطلق النوتىُّ ينشدُ جملةً يكْمِلُ الخبرَ السعيد .

لقد تم اختيار الزورق بفضلٍ وحُسْنِ تدْبيرٌ ...

وركبَ الزهوُ « طور أغلو أفندى » وقد انتفخت أوداجُه ، وانْتَفش شاربُه ، وتَسامَى بصَدْرِه ، ينظر إلى الجمْع تأخذُه عزةٌ وكبرياءٌ .

وواصل النوتىّ حديثَه :

سيكون ذلك الزورقُ فاتحةَ خيْر وازْدِهَارٍ .

فعقّب « طور أغلو أفندى » يقول ، وهو يفْتُل شاربَه وئيدَ الحركة :

الْخيرَةُ فيما اختارَه الله .

ثم مضى صوْبَ القصر ، خَفيفةً خطاهُ ، كأنما هو طائر يُحَجِّلُ ، مُوشِكاً أن يُرَفرِفَ بجَنَاحَيه .

(٢٦)

ولما تنَفَّسَ الصبح ، بكَّرَ النوتى إلى مَرْقدِ سيْده يُحَيِيه مُشرِقَ الطَّلْعَة ، مرح الأوصال ، فألقاه مُقبلا على فُطوره ، يلتهم بيضاتٍ ثلاثاً ، غَرِقَتْ فى سمنها الرَّقْرَاقِ تحاكى فى صُفرتها لونَ الذهب ، فكأنَّهَا فى الطَّاس نجومٌ لامعة فى السماء الصَّافِيَة تحيط بها هالةٌ من سُحب ناصِعَة البياض .

وجعل ربُّ القصر يُصيبُ منها اللقمَة تلو اللُّقمة مُتَفَتِّحَ النفس ، لا يلوى على شئ .

وأفلتت منه نظرة إلى النوتى ، فتنحنح يسأله ، والرجل على قرب منه ، يتلاعب بحشَايا قلنسوته الغبراء :

خيراً ... فِيمَ بُكورِكَ ؟

فأجاب النوتى :

الزورقُ فى انتظارنا .

– ماذا علينا أن نفعل ؟

– أونَسِيَ سيِّدى ؟

– ماذا نسيت ؟

– نؤدى للتاجر بقيةَ الثمن ... ثم نتخذُ الوسيلة لنقلَ الزورق حتى نُسَلِّمَهُ إلى البحر فى أمان .

– هذه مُهِمَّتُك ... وعليك تدبير ما يلزم ... أما أنا فسأصاحبك لأنْقُدَ التاجر فاضِلَ الثَّمن ، وأتسلَّمُ منه المُخالَصَةَ .

فَشَهِقَ النوتىُّ :

أويَصِحُّ يا سيِّدى أن تُجَشِّم نفسك مَشَقَّةَ الانتقال وأنا هنا طوع بنانك ... عَوِّلْ علىَّ ... سيتمُّ كلُّ شئ كما لو كان سيدِى معى ...

- لا بأس ... سألبثُ هنا اذنْ ريثما تجئَ بالزورق إلى المرسى ... لستَ فى حاجة إلى أن أوصيكَ بالزَوْرَقِ خيراً ... حاذر إهمالَ العُمَّالِ ... إنهم مُهْمِلون لا يُبَالُون .

- الزورق فى عَيْنِى ... سأتصرفُ كما لو كان مِلْكاً لى ... مالُكَ مالى يا سيدى ، أخشى عليه خشيتَكَ عليه ...

وضرب « طور أغلو أفندى » يده فى جيبه يُخرج ما أعدَّ من أوراق نقدِيَةٍ يَفِى بما يقى من الثمن ، وانثنى يُسَلِّمُهَا إلى النوتى ورقَةً ورقة ، فى دقَّةٍ وأناة .

ولما انتهى من العد والتسليم ، رجع إلى صَحْنِ البَيْضِ يَغْمِسَ فيه لُقمته ، وسمع النوتى يهينم له فى رفق بقوله :

بقى شئ يا سيدى .

ومسح « طور أغلو أفندى » فمَه وجَمْجَمَ وقد باغَتَتْهُ كلماتُ الأحْدَبِ :

ماذا ... ؟

رسمُ استخراجِ الرخصة .

فوَجم ربُّ القصر تضطرب شفتاه ، وعيناه بالأحدب موصولتان لا تَطرِفَان ، ثم نطق يَسْتَطِلِعُ مَهْزُومَ الصوت :

أليس من استخراجها بُدٌّ ؟

- لكلِّ زورق رخصة .

- ألا يمكن تأجيلها إلى حين ؟

- إذا جرى الزورق غيرَ مرَخَّصٍ ، تعرَّضْنَا من رقابة الشرطة لمغَارِم كبيرةٍ .

- لقد دفَعْنا الكثيرَ .

- ولم يبق إلا القليلُ .

فَتَملْمَلَ « طور أغلو أفندى » فى جلْسَته ، ولم يملك إلا أن يُمهِرَ النوتىُّ على مضض ما طلب ، وهو يُرَدِّدُ :

الأمْرُ لله !

(٢٧)

انْهزَم الصيفُ .

وآب « طور أغلو أفندى » إلى مشتاه فى الريف البعيد ، هرباً من عادِيَاتِ البرْد وهَجْماتُ الرياح .

كان شتاء قاسياً ، أجدبت منه الأرض ، وبار الزرع ، ونقص الريْعُ .

ثم دالت دولة الشتاء .

ولكن « طور أغلو أفندى » لم يجد فى مقدوره أن يرحل

إلى مصيفه على ضفاف « البسفور » ، يلتقى بقصره ، ويجول فى المضيق ، ويصول ، ممتطياً زورقه البخارى يزهو به ويفاخر ، ملقياً إلى البحر شصَّه المَنْهُوم .

ماذا أنت طالبٌ إليه ... ؟

أتراه وقد فقد فى هذه الشُّتْوَة ما ألف من فَيْضِ الريع يمدُّ يدَه إلى ماله المدَّخَرِ ، فيَقْتَلِذُ منه فَلْذَةً يلهو بها لهو الصيف ؟

لا كان ذلك ولا جرى .

فلم يغْرُبْ عن فَطنته المتيقِّظَة المثلَ القائل : « من مدَّ عَيْنَيْه إلى ما ليسَ فى يَدَيْه ، أسْرَعَت الخيبةُ إليه ، وعَكَفَتْ عَلَيْه » .

ليَعْقِل هذه الحكمةَ ، وليَسْتَعِن بها فى ريفه القَصِىِّ على تحمُّل وَهَجِ القَيْظِ ولسْعِ البعُوض ، ورَتَابة العيش .

لا مريَةَ أن الأيام آتيةٌ ، وكلُّ شدَّةٍ إلى فرج .

وتعاقبت شَتْوات جَدْباء ، لقى منها الرجل عنَتاً ، أىَّ عنت ! ولكنه صبر عليها جُهْدَه ، فلم تستطع أن تقتحم عليه ما يدَّخِره من مالٍ فى المصارف دفينٍ .

قَنع بالقرار فى بيته الريفى ، يُزْجى أيامَه المُوحشَة مَلُولَ المزاج ، يتلقَّى فى تبلُّدٍ واستسلام ضربات القَدَرِ وما دَهِمَهُ به من ذلٍّ وحِرْمانٍ .

وفى الفَيْنة بعد الفَيْنة تراوده أحلام العيش فى قصره الصيفى حيثُ الزورق البخارى يمهِّد له المُتْعة والإيناس ، فَتَسْرى بين جنبيه مشاعرُ اللَّهْفَة ، فيتغنى لنفسه بقوله وهو يقرُضُ أظفارَه مشْبوب الحَنين :

طولُ الصَّبر يُبلِّغ الأمل ... لا بأس ... الأيام مقبلةٌ لا ريب ، وبعد الغمام يصفو الجوُّ ويروق .

ولم يغْفُلِ الرجل خلال تلك الغَيْبة أن يكتب ، فى استْفاضَةٍ ، إلى حارسِ قصرِه يستخبره عن شئون القصر وما يَفيئُه الزورق من صَيْدٍ ربيح ، فلا يَتَلَقَّى من رَجْع الجواب إلا سُطوراً معدودةً تنبئه على وجه الإجمال بأن كل شئ على أحسَن ما يُرام ، فَيَزْدَرد « طور أغلو أفندى » تلك السُّطُورَ كأنها فُتاتُ العيش تَتلقَّاهُ معدةٌ خاويةٌ فَيَزيدُها من جوعٍ .

وأخْصَبَت السَّنة ...

وما كاد الصيف يُهِلُّ حتى ولج طور أغلو أفندى مكتب البرق مُتَفَتِّح النفس ، وانكبُّ على ورقة يُدَوِّن فيها برْقيةً إلى حارسه يزُفُّ إليه مَوْعدَ القدوم .

(٢٨)

أما فى قصره الصيفى ، فكان للأحداث وجهٌ غير ذلك

الوجه العَبُوس الذى شَقِى به « طور أغلو أفندى » فى مَشْتاه القصيٍّ .

منذ رحل ربُّ القصر ، عكف النوتيُّ يقْدَح ذهْنَهُ ، ويصل أسباب عيشه ، لا تَفْتُرُ له عزيمةٌ ، ولا يَهِن له تدبير .

لم يفلت ركنٌ من القصر ، وإن ضَؤُلَ شأنُه ، إلا اقْتَحَمَتْهُ عبقريتُه ، ودارت فيه يدُه الدَّرِبَة ، تُمِيطُ عنه غُبار التَّعَطُّل والجمود .

وانْبَعَثَ بثاقب نظره ، وحدَّةِ فطنته ، يغترف ما يَسَعَهُ أن يغترف من ذلك الكنز الضائع ، فتبدلت حاله وبانت عليه مخايلُ ثَرَاءٍ ونِعْمَةٍ .

مرت الأعوام هانئةً .

وتقاطر الخطاب من خيرة الشباب عليه يطلبون ابنته الحسناء « فُورتونيه » قرّةَ عينه ومَطْمَحِ هواه .

غير أنه كان يُنَحِّيهُم عنه فى تَغَطْرُسٍ ، مُنتظراً لابنته ذلك الزوج المليئ ، الذى يستطيع أن يَزِنَها بالذَّهب ، وأن يَفْرِشَ طريقها بالزمردِ واليواقيت .

ولا تسل عن الزورق البخارى الذى ازدان به مرسى القصر ، وانفسحت له جوانبُ المَضيق يَسْرَح فيها ويَمْرَحُ ، مُستأثِرا بما تُخْبِئُه الأعماقُ من نتاجٍ موفورٍ .

وفى غمرة هذه المباهج والمسرات ، لم يَحْسِبُ النوتىُّ حساباً ليقظةِ الجيرةَ وسَهَرِ الأعينُ عليه .

تناسى أنهم له بمَرْصَدِ ، يُحْصون عليه الحركَة لينالُوا منه ، ويُوقعُوا به ، حَسَداً له .

ماذا يَمْلك الناسُ من أمره ، وقد أسلس له الحظُّ عِنَانَه ؟

فليتَميَّزوا غَيْظاً ، ولْيَسرِ فى طريقه ، لا يَعبأ بشائعةٍ ... تُقال ، أو وشاية تُحاك ...

(٢٩)

وجاءت البرقية .

وأمسك بها النوتى يفُضُّ غِلافَها ، فهَبَّ عليه النبأ الفاجعُ كالإعْصار الجارف ، يَقْتَلع فى هيَاجه ما للبرقية من كلماتٍ ، فتَتَنَاثَر حروفُها كأنها الحَصَيَاتُ انسلختْ من بين السطُور ، ترجُمُ فى تَطَايُرِها ناظِرَيْه ، فتفقدُهُمَا صَفَاءَ الرُّؤية ، وتَطْمُسُ ما لجوهر الأشياء من وضُوح .

واعتراهُ وجوم .

ولاحظ أهلُ بيته وأصْفياؤه المقرَّبون اضطرابَ أمْرِه ، فهو منكدرُ النفس ، حامِضُ الطبع ، لا تخلو كلماتُه من سبابٍ وعتابٍ .

راحت السكرةُ ، وجاءت الفكْرة ...

لقد انقطع عهدُه بربِّ القصر سنواتٍ فكأنما أصبح هو للقصرِ ربًا يُصَرِّفُ شأنَه كما يشتهى ، يُظلُّه ، بجَبَرُوتٍ وسُلطانٍ ، فخُيِّلَ إليه على كرِّ الليالى ومرِّ الأيام أن سيده ذلك لم يعد له أوْبٌ ... طواه إلى غير رجعة قَبْرٌ سحيق ، فلم يتَبَقَّ فى مملكته منه إلا أصداءٌ شاردِة تَتَمثّل حيناً بعد حين فى رسائل ، ما هى إلا حبْرٌ على ورق ... أصداءٌ تذهب مع الريح ، وتتطاير فى فُسحة العَراء تَطَايُرَ الهَشِيمِ .

فما لتلك البرقية تشق اللحد الذى استودَعَهْ ذكرى سيِّدِه تبعثُه حيًّا يَسْعَى إليه ؟

واعتمد الأحدَبُ رأسه بين راحَتَيْه ، وذهب يُراجع نفسه ، مدبِّراً خطَّةَ لقائه لذلك الشبح الزِّرِىِّ البغيض .

حان له أن يودِّعَ حرِّيتَه ، وينزل عن عرشه ، ويستقبل عهْدَ مُساءَلَةٍ وحساب .

لن يكون له بعد اليوم سيطرةٌ على الزورق البخارى الذى تولَّى أمره واستَمْرَأَ خيره ، كأنه عبدٌ من عَبيده الأوفياء .

ولبث الرجل على قَلَقٍ ، لا يكادُ يَلْقى واحداً من أسرته إلا عنَّفَ به ، وأنْحَى عليه بأوامرِه ، متوعِّداً إيَّاه بأقصى العقاب

إن هو شَقَّ عَصَا الطَّاعةِ ، ويدُه تَعْلُو وتَهْبِط تُسانِدُه على تأكيد عزمه ، ملوِّحةً بورقَةِ البرق تَنْتَفِضُ .

وَفَرطت منه إلى البرقية نظرةٌ ، فتوقَّفت يدُه عن التَّلْوِيح ، وما لبث أن هوى عليها تمزيقاً ثم ألقَى بحُطَامها إلى العَرَاء ، وفارق البستانَ هائماً فى خَطْوِهِ ، لا يَعْرِفُ له وجهةً يَقْصدُها ، وحطام البرقية يهيِّجُه النَّسيم ، فتتراقَصُ قصاصَاتُه المتناثرة ، كأنها أطفال تَشْغَب فى أَثَرِه ، تُشَيِّعُه فى مُنْصَرفِه بسُخْرِيَةٍ واستهزاء .

(٣٠)

وفى اليوم الموعود وقف النُّوتىُّ عند مَرْفأ المدينة الكبير ، مُنتفخَ الأوداج ، مُقَطِّبَ الأسارير ، تهتز حَدَبَتُه على ظهره ، وهو يُرَوِّضُ نفسَه ويُهَيِّئُهَا ليَتَلَقى سيِّدَه بما يُوحِي بالحفاوة والتَّجِلَة والإكرام .

وما لَفَظَت السفينة « طور أغلو أفندى » مع الصَّادرين عَنْهَا ، حتى أسرع إلى أمينه النوتىُّ يشدُّ على يده فى سلامٍ جيَّاشٍ ، وهو يصْدَعُ فى صوتٍ كلُّه بهاءٌ من فَرْطِ سَعْدِه باجتماع الشَّمْلِ :

ما أطيب اللقاء بعدَ طولِ احتجابٍ .

وأسلم النوتى كفّه لسيده ، يتقبّل عطفه فى تطامُن ، ومضى يبادله التحيّاتِ على تكلُّف ، مُريداً قسماتِه على أن تَحْمِل علائمَ السرُور ودلائلَ البشْرِ .

وزَحَمَه « طور أغلو أفندى » بقوله متورِّد الوجنتين ، وهو يفتح صدره ، يعُبُّ النَّسيمَ عبَّ سكران :

سوف تُعاوِدُ الحياةَ من جديد ... نغزو « البوسفور » بشباكنا على ظهر زورقنا الحبيب .

وهزَّ النوتىُّ رأسه موافقا فى صَمْتٍ ، وقد انْثَنى يَنْقُل أحمالَ المتاعِ .

أمّا استقبالُ القصر لعاهله فكان رائعا ... استقبالَ الغُزاة الفاتحين ... امرأةُ النوتى وأولادُه وحَفَدَتُه فى صَفٍّ مرصوص ، ينْحَنون خَافضى الرؤوس مهنّئين ، والقصر مُعَطَّر ، يَشيعُ فيه أريجُ البُخورِ ، تزدان أبْهاؤه بألوان الرياحين ، وتَتَجلّى رِياشُه مُهَنْدَمة تزُفُّ إلى النفس الأُنْسَ والانشراح .

وتجلّت الحديقة ، مَشَذَّبَةً مورِقةً ، تحفَلُ أفنانُها بأطايب الثمار .

يميناً إن النوتىَّ لم يُخَيِّبْ ظنه ، لم يُخِلَّ بواجبه ... ما أروعه من حارس أمين .

(٣١)

ما خلا « طور أغلو أفندى » إلى نفسه ، ينفُضُ عنه متاعب السَّفر ، وينال قسطاً من الراحة حتى استدعى الأحدب يتحدَّثُ إليه ، ويُسائله فى أخْبَارِ القصر ، وشواغلِ الزورق خلال محبَسه فى مشتاه الطويلُ .

وأسْمَعَهُ النوتىُّ من الأنباء ما يَسرُّ الخاطر ، ويَرْوى الظمأ ، فلم يَتَمالَكَ « طور أغلو أفندى » أن تفوَّهَ بعبارته مهتزُّ الاعطافِ :

عظيم ... عظيم ...

وأشرَع إلى النوتىِّ عينيه وطَفِق يقول :

ألك أن تحدِّثَنَا عن الصيد ... وتصفَ لنا حال البحر ؟

فاندفع النوتىُّ فى شَرْحه ينمِّقُ عباراته ، وهو يصُبُّ الأنباء على رب القصر متحاشياً أنْ يَزُجّ بالزورق فى مَجْرَى الحديث ما وسعَه أن يتحَاشَى .

وما أتخم « طور أغلو أفندى » بالأخبار ، واطمأنت نفسه إلى صدق ما وَعَى حتى خرج عن صمته يقول :

جزاك الله ... شوقْتَنى إلى البحر أكثرَ ما أنا إليه مُشتاق ... عليك بإعداد الزورَق ... وتجهيزه أتمَّ تجهيز ... موعدُنا على المرسى ... عند الأصيل .

وحاول النوتيَ أن يُثْنِي ربُّ القصر عن عَزمه ، ويَحْمِي الزورقَ من نَزَقه ، فهينم : ألا يَجْدُر بسيِّدي أن يستريحَ اليوم ... وفي غد نُجْرِي الزورق ... ونختبر البحر ؟

فاستأنف « طور أغلو أفندي » قوله ، وفي صوته رنَّةُ عتاب ملحوظ :

أبعد ذلك الغياب الطويل عن مباهج الحياة ، ومفاتن المضيق ، تطالبني بالاحتجاب عن الزورق أكثرَ مما احتجبْتُ ؟ ... أوتحسبني « أيوبُ الصبور » ... أحتمل ما احتمل في مجالدةٍ وعزم ... لا ... لا بد لي من ساعةِ لهو تُعَوِّضُنِي ساعاتِ الحرمان التي اكتويتُ بنارها في مَشْتاي الكئيبِ .

وتهيَّأ النوتي لمواصلة ما انقطع من كلام ، إلا أن « طور أغلو أفندي » صرفه عن التعبير بقوله :

حسبي ما سمعت ... لقاءنا في الموعد المضروب ... ليكن كل شئ على ما يرام ... لا تنس ما أوصيتك به .

واحتجب يُوغِلُ في مُسْتَحَمِّ القصر .

وانْغَلَقَ عليه بابُه .

وشمل المكان صمتٌ .

وصدر النوتيُّ مُتَصَاغِراً ، وساقَتْه قدماهُ إلى حظيرة القوارب

يشغل باله حديثُ سيّده عن الزورق المنشود ، وحَامَ حوله حَوْمَ الطير على فَرْخه ، ومثل يتملاه ويتلمسه فى تحنُّنٍ كأنه قطعةٌ حيّةٌ منه ، يُشْفق عليه من إمْرَة سيْدٍ طاغية ، وكأنما لطول اسْتئثَاره به وأُلْفَته له ، يعظمُ عليه أن يَشْركه فيه أحد ولو كان « طور أغلو أفندى » نفسه ، صاحبُ الحق فيه .

إنه لَيُرَاوِده الساعَة إحساسٌ بأن ذلك الزورقَ أشبه ما يكون بطفل له ، تعَهَّدَهُ وأنسَ به ، فكيف يبيح ليدٍ غيرَ يده أن تمتدَّ إليه تأخذه منه غِلاباً أو تستَلِبُه استلاباً ؟ .

لا مريَة أن عملاً مثلَ ذلك لعملٌ من أعمال القرصنة تُدينُه شريعةُ اللّه ، ويستنكره قانونُ البشر ، فيندِّدُ بالآثم ، ويُنْزِلُ به أقصى عُقوبَةٍ وأعْسَرَ قِصَاصٍ .

أيَقفُ من زورقه مكتوفَ اليدين لا يَدْرأُ عنه الخطر المُحدِقَ به ؟ .

ما عساه أن يَخْلُقَ من أعذار تردُّ اعتداءَ « طور أغلو أفندى » وتَهَجُّمه عليه ؟ .

وامتطى الأحدبُ ظهرَ الزورقِ ، واقْتَعَدَهُ ، يقلِّبُ بصره فيه ، تشردُ به تأمُّلاتُهُ .

وامتدت به الجلسَةُ .

وتشابكت برأسه الأفكارُ تشابكَ العناكِب فى خيوطها ، فَفَسد رأيه ، وعَمِيَتْ بصيرتُه ، ولم يعد له من حيلةٍ إلا أن يَنْزِل عن عرش زورقه ، ويَدْخُلَ مرغما فى متاهات النسيان .

وصعَّد النوتىُّ زفرةً ، وقد أوشكت دموعُ اليأس أن تَنْبَجِسَ فى مآقيه .

(٣٢)

وعند العصر خرج الزورق من الحظيرة إلى المَضِيق ، يَذْرَعُه فى اقتدار ، وقد احتلَّ « طور أغلو أفندى » كُرسىَّ الصدارة منه ، ونَعِمَ معه برحلةِ صيدٍ مُباركٍ ميمونٍ .

وآب إلى قصره ، تترَنَّحُ أعْطافُه ، وتَزْهُو نفسُه بما أحْرَزَه على البحر من نصر عظيم .

والتفت النوتىُّ إلى سيده يَسْتَأمِره فى شأن حصيلة الزورقِ من صيْد اليومِ .

فأجابه « طور أغلو أفندى » وهو يتلفظ :

لا تَعْرِضْه كلَّه للبيع ... استَبْقِ منه مقداراً غيرَ قليل ... نَفْسِى راغبةٌ فى أكْلَة منه مُشْبِعَة .

ومضى إلى القصر ، تُدَاعبُ خياشيمه رائحةُ الشِّواء الشَّهِىِّ .

(٣٣)

وبعد أن أصاب « طور أغلو أفندى » عشاءه ، واستسلم لأفكاره ، ومن فوقه نجوم الليل تَبُصُّ كأنها ترحِّبُ بمَقْدمه ، إذ دار بخاطره أن حارسَه لم يَفْتَح حديثاً فى شأن المحاسبة فيتبين كَسْبَه ويَتَعرفُ مغَانمَه .

أما حان لأمينه الأحدبِ أن يجلس إليه فى هذا الشأن ؟

وانتظر على مرسى قصره ، حتى أوغل الليل ، وأخيراً لم يجد بداً من أن ينهض إلى منزل الحراسة ، فالتقى بالأحدب جالساً تحْتَ عريشِ الكرْم يدَخِّنَ لفافةً ، وقد أسْبَلَ جَفْنَيه ، وتوضَّحَتْ على جبينه سحابةٌ غائمةٌ من تفكير .

فتنحنح « طور أغلو أفندى » يقول متخَشِّعَ الصوت :

مساء الخير .

وإذا بالنوتى يَتَفَزَّع من أحلامه ، وينْهَض واقفاً ، مُتَلَعْثِمَ اللِّسَان يَرُدُّ التَّحية : تفضلْ سَيِّدِى ... شرفٌ كبير أن تَزُورَنِى .

وهَبَّ يقدِّم إلى ربِّ القصر مَقْعَداً تَخَيَّرَهُ .

فجلس « طور أغلو أفندى » وهو يَفْتُلَ شَارِبَهُ ، ويُسَوِّى ما تَهَوَّشَ من شُعَيْرَاته ، ثم أنشأ يَسْتَوضِحَ النوتىَّ ما تَوَافَرَ له ، على مرِّ الأعوام ، من ربْح الصَّيْدِ .

فَغَمْغَمَ النوتى يردُّ مَتآكل النَّبرات :

لا يكُن سيِّدى مشغولَ البال بِشَىْءٍ ، وليأخذ مُتْعَتَه فى الصيف بعد السنوات التى أمضاها فى عَنَتٍ وإجهاد ... ولتَطْمئِنَّ نفسُه إلى أن كلَّ شئ على خيرِ ما يُرَام ... وللحساب أوان .

فتلاعب « طور أغلو أفندى » بسِلْسِلَةِ ساعته مؤكداً :

حقًّا ... حقًّا ... ولكن لا بأس بأن أعرف الحساب على وجه الإجمال .

لا داعى للعَجَلَةِ ... نُؤَجِّلُ ذلك إلى غد ... الصباحُ رباح .

- إنى واثق بك ... ولكنى رأيت أن نَشْغَلَ الوقتَ بمجَاذبَةِ الحديث ... عسى أن يكون الخيرُ قد واتانا بعد سنوات الجدْبِ التى أصابت الزَّرْعَ والضَّرع .

- اطمئن يا سيدى ... أسانيدُ الحساب مُعَدَّةٌ .

وأمضى « طور أغلو أفندى » هُنَيْهَةَ صَمْتٍ ثم أمرَّ يَدَه على جَبْهَتِه وقال لحارسه :

ذكِّرْتنى ... لَمْ تَبْعَثْ إلىَّ بعقد شراء الزورق ... فأين العقد ؟

ورفع الأحدب جفنيه كأنه يجمع شتات ذاكرته المتداعية ثم أجاب :

العقد ... ؟ نعم ... لقد تَسَلَّمْتَه من التاجر يومَ أدَّيتُ بقيَّةَ الثمن ، لا شك أنه بين الأوراق مَصُونٌ ... ما حاجتك إليه سيدى والزورق فى حوزتك يصول ويجول ؟.

- وأين الرخصة ؟

- إنها عندى ... مكْنُونةٌ فيما أحفَظُ من أسانيدَ .

ولماذا لا تكون فى الزورق ، حتى تُبْرِزِهَا لمن يعْترضُون طريقنا من شُرطة الرِّقابة فى المضيق ؟

- لقد أصبح الزورق معروفاً لكل الرُّقَباءَ ... وطالما اطَّلعوا على الرخصة فى فترة غيابك ... لم تعد بهم حاجةٌ إلى اطلاع جديد ... اطمئن يا سيدى ... وليَطِبْ خاطرك من هذه الناحية .

- لا تنس أن تُرِينى إياها .

- ذكَّرْتَنى ، حماكَ اللّه ، يا سيدى ... لا بد من البحث عنها لتجديدها .. فقد أزِف موعدُ أداء الرسم المطلوب للسنة الجديدة ... سمعت أنهم رفعوا الضريبةَ السنويةَ على المركَبَاتِ البخاريَّةِ فيما رفعوا من ضَرائِبَ سنويةٍ .

فما وعى « طور أغلو أفندى » حديث الضرائب حتى تراجع على مقْعَده ، وانفرج فَمُه عن تثاؤبٍ متراحبٍ ، كاد فكُّه ينخلع له ، ثم قالَ وهو يتمطَّى مُوَدِّعاً جليسه :

أحس خَدَرَ النعاس ... طاب مساؤك .

وجرَّ خُطاه ينقُذْ من الحديقة إلى القصر .

فشيَّعَه النوتيّ ببَصْقَةٍ عريضَة قذف بها على الأرض ، ورام مَقْعَده ، قاصداً فِراشَه ، تَشْمَلُه قشعريرةُ اشمئزاز .

(٣٤)

لم تتوارد أيامٌ حتى اشتدت مطالب « طور أغلو أفندى » من الزورق وتعددت ، وسمَتْ همَّته إلى قيادته بيديه ، يستمرئ ، وهو يُوَجِّهه الوجه الذى يرتضيه ، لذةَ تلك الرياضةِ المحببَّةِ إليه الأثيرةِ لَدَيْه .

وفى إحدى الجولات ، باغت « طور أغلو أفندى » صفيَّه النوتيَّ حين أمره بالتخلّى عن مقعد القيادة ليستولى عليه ، مُتَوَلِّياً بنفسه زمام الزورق .

وبُهِتَ الأحدبُ ، فعمدَ إلى المراوغَة يزُمْزِم :

المياهُ يا سيدى فى الخليج صعبةُ المراس ... تياراتُها متضاربةٌ متقلبةٌ تستلزم الخبرةَ والكفاية واليقظَة ... أخشى عليك سيدى تغيُّرَ الماء ... ربما جَرَفَنَا التيَّار ... فأوقعَنَا فى حرج لا منجاةَ منه ولا سلام .

فانتفش « طور أغلو أفندى » وكأن كرامته خُدشت ، وشعورَه استُذل ، فتشدَّدَ فى قوله حازمَ اللَّهْجة :

أنا بالماء عليم ... وعلى سلامة الزورق قدير .

وعاود الأحدب غَمْغَمَاتِه :

أيجدُر بسيدى أن يُتعب نفسه ، ويلوّث يديْه بما تنضحُه الآلةُ من زيْت ووضر ؟

وأضاف « طور أغلو أفندى » :

غيرُ مُهِم ... الزورق زورقى وأنا بسلامته كفيل .

ونهض مكانه يُقيل الأحدب عن مركز القيادة ، فتنحى له عنها صاغراً ، يُوغرُ الحقدُ صدره على سيده ذلك الطاغية ، بيد أنه صَبَغَ ملامحه بِمَسْحَةِ الرضا ، يوارى فى ابتسامة كاسفة ، ما يَعْتَملُ فيه من كُرهٍ .

وعكف « طور أغلو أفندى » يمارس القيادة على هواه ، غير مبال فى حِمْيَةِ نَشْوَتِه ، ما يتورّط فيه من مأزق ، وما يتعرّض له الزورق من ضرر .

وانطلق به فى المضيق يسُوقُه كنحلةٍ موصولةِ الحركة لا قَرار لها ولا هدوء ... آناً هو ماض إلى الصيد ، وآناً إلى النزهة ، وآناً آخرَ هو فى ليّاتِ الخليج ملم بدور الجيرة يحييهم على الشاطئ المعمور وهو هيمانٌ طَرُوبٌ .

(٣٥)

تابع « طور أغلو أفندى » لهْوه بالزورق ، لا ضابط له ولا رادع ...

وضاق النوتىّ ذرعا بذلك الإلحاحِ المستَبدّ وتلك المحاصَرَةُ الرُّعناء ، التى جعلت منه فأراً فى مصيدة لا يملك فيها من حريّةٍ وانطلاق .

إن الأوامر تُمضُّه ، إذ تجعل منه ركوبةً مطواعة لـ « طور أغلو أفندى » يقسو عليها جُهد القسوة .

ليكن هو ما يكون ... ولكن الزورق ؟

يجب أن لا يمسَّه من جراء تلك المغامرات الدائبة مكروهٌ .

إن أعوزَ ربَّ القصر تَبصُّرُهُ ، فخليق بالنوتى أن يحتاط للزورق ويصونَه من ضياع .

لا بد من عمل حاسم يُفْسِحُ للزورق الحبيب فسحَةَ راحةٍ ومُهْلَةَ جَمامَ .

وطفق الأحدبُ يروى تلك الأفكار ، بعُصَارة قريحته ، ويتبين عواقبَها بثاقبِ نَظَرِه ، وعيناه ضاربتان فى الأفق ، وصدرُهُ يَعْلُو ويَهْبِط كأنه بحرٌ موَّاج .

(٣٦)

ويوماً سالتَ شمسُ الأصيل على الزورق ، ماضياً فى رحاب الخليج ، بين ضَفَّتَيه ، وقد ترك « طور أغلو أفندى » قيادته إلى النوتى ، واسترخى على مقْعَد الشرف فى مؤخَّر الزورق ، يُمَتِّعُ النظر بالمضيق فى ثوبه الرشيق من قَسامَة وحُسْن .

فالتلال ناصعةُ الخُضرة تُعَمِّم نواصيها دوحاتُ الصَّنَوْبر ، يَسْطَع شذاها الفوّاح وتنبسط ظلالُها على المسالك والدروب ، والحوافل على مراقيها ماضيةٌ وكأنها على مدِّ النظر صغارُ النَّمل لا تنفك غاديةً رائحةً فى جدٍّ ومضاء ، متخمةً فى جسمها المَهُول بصنوف الخيرات ، زاداً للمغانى الساحليَّة ، وقد تلاحمت جوانبها تُلامس البحرَ فى تآلفٍ وانسجام فكأنها الحورياتُ انشَقَّ عنهنَّ اليمُّ ، فخرجن إلى الشاطئ للفتنة والإغراء ، وانثنى الأحدب على مفاتيح الآلة البخارية يدير هذا ، ويعرك ذاك مُنْهَمِكاً فى عبثه لا يعبَأ بربِّ القصر بل يكاد لا يُحِسُّ له من وجود .

وبغتة تقطَّعتْ أنفاسُ الزورق ، وفَتَرتْ نَشْطته وتبلَّدَ محرِّكُه ، فجَمَدَ فى مكانه تُدغْدِغُه الأمواجُ ، فلم يتمالك أن يتعوَّجَ مُسايراً دفَعَات التيار المُتَغيِّرة .

وتفزَّعَ « طور أغلو أفندى » واشرأبَّ بقامته يَستَوثِق من النُّوتيِّ :

ماذا حدث ؟

ومكث النوتىُّ يستَخْبِر أجهزة الزورق المتعدِّدة ، مظهراً دَهْشَتَه ، وعلى ظهره تترجح حدبته كلما صدرت عنه حركة ، أو لوَّح بإشارة .

وعاد « طور أغلو أفندى » إلى سؤاله ، فلَوىَ الأحدبُ عُنُقَه وأقبل على سيِّدِه يُجَمْجِم بوجْهٍ مُتطاولٍ يَنِّمُ عن حُزْنٍ بليغ :

لا علم لى ... عينٌ خبيثةٌ أصابَتْ زورَقنا الجَسُورَ .

وتصيَّد النوتىُّ قارباً يغالبُ الموج ، فَسَمَا بهامته يلَوِّحُ بيده وهو يقول :

خيرٌ لسيدى أن يغادر الزورق ويدَعَهُ لى أعالجُ إصلاحَه .

– أأتركُكَ وحدَك ؟ ... أفضِّل أن ألازِمَك حتى تَفْرُغَ من عملك وأتعرَّفُ ما حَلَّ بالزورق من فَسَاد .

– لا يا سيدى ... أخشى أن يطول الانتظار .

وخف قاربِ النَّجْدَة ، وما عَتَم أن حمل « طور أغلو أفندى » إلى مرسى القصر تاركاً النوتىَّ يَسُوسُ الموقفَ ، ويَتَدَبَّرُ الأمرَ .

(٣٧)

وتفشّت الظلمة ...

وتراءى « طور أغلو أفندى » على مرساه يَذْرَعهُ فى جيئة وذُهُوب ، عاقداً ساعدَيْه خلف ظهره ، يَغْلِى كالمِرْجَل لا تهدأ به خُطاه ، وما انفك يدير أنظاره فى العَتَمة ، وكأنه يُحاول أن يمزّق من حوله سِتْرَ الليل .

وتباطأت الساعاتُ فى سيرها الكسيح ، وربُّ القصر فى مقامه تَلْعَبُ برأسه الظنون ، راصدَ العَيْن لسارية الزورق ، عسى أن يراها وقد أوْمضَ منها المصباح المعهودْ ، مرهَفَ السَّمْع لما تبعثُه الآلة من هدير .

وأخيراً تثاءب بابُ القصر عن الأحدب ، باديَ الإعياء .

فما أن تَبَيَّنَه « طور أغلو أفندى » حتى سَعَى إليه من أقْصَى المرسى ، مُهَرْوِلا فى خطوه ، يقول مكروبُ الأنفاس :

أين الزورق ؟ ... ماذ جرى ؟

فأضاف النوتى وهو يمْسح بيده الملوَّثة وجهه المُغَبَّرَ :

أخْفَقَ كلُّ مجهود .

- وأين هو الآن ؟

- سقناه إلى مخزن هنالك ، وأسلمناه إلى صَانعٍ فَنيٍّ يُعالجه.

- وماذا تبين به ؟

- سنعرف بعد الفحص .

- أأصابه تلف جسيم ؟

- لم أدر بعد .

- أيطول إصلاحه ؟

- أغلب الظن أن الأمر يتطلب مُهلة أيامٍ غَيْرَ قلائل .

وازدرد « طور أغلو أفندى » ريقَه حَانِقا ، ثم سأل :

متى نعرف على وجه الدقة ؟

- غداً ، أو بعد غد ...

- لماذا لا نستشير المتجر الذى اشتريناه منه ؟

فحدَّق النوتىُّ إلى « طور أغلو أفندى » وهو يقول :

- ألم تدر يا سيدى ؟

- بماذا ؟

- بأن المتْجَرَ أفلس وأغلق أبوابه .

- أحقًّا ؟

- بل إن صاحب المتجر لم يتحمل صدمة الإفلاس فأصابه الفالجُ وقضى نحبَه على الأثر ، فتشرد عماله ، وتقطَّعتْ بهمُ السُّبل .

- لا حول ولا قوة إلا بالله .

ومكث « طور أغلو أفندى » يضرب كفًّا بكفٍّ على حين استرسل النوتيّ فى ثرثرةٍ يقول :

لو ذهب سيدى إلى المتجر لشهد مكانه حانوتاً يبيع حاجيات الأطفال من حلوى ولُعَبٍ وكِساء .

(٣٨)

استشعر « طور أغلو أفندى » ضِيقاً يزداد به ، وكأنما تتوضّحُ فى أُفُقِ حياته ظلالٌ قاتمةٌ تؤذن بعاصفةٍ وشيكةِ الهبوبِ .

وآن لقارب النوتى المتهدِّم أن يأخذ مكانه من المرسى عَوْداً على بدء مزهُواً بمجذافه المتآكل وطلائه المطموُس ، وسمَاته المضَعْضَعَة ، فلا يجد رب القصر بداً من أن يتودَّدَ له ، وأن يلْتمسَ منه العون والترفيه .

إن المصطافين على شاطئ المضيق ، لا يحلو لهم الاصطياف إلا إذا ضمّتْهم أحضانُه ، وتقلّبوا بين أعطافه ، تَنَزُّهاً فى الزوارق ، وانغماساً فى مياهه ، واستمراءً لما يَسْبَحُ فيه من لحمٍ طرى .

كان « طور أغلو أفندى » يَشْهَدُ ركب الزوارق فى رتُوعه على مَتْنِ العبُاب ، فتأكلُه حَسْرَةٌ ، ويَميلُ على النوتىّ يسألَه

فى أمر زورقه ، متى يتم إصلاحه ، ليكون له فى الركب مكان ملحوظ ؟ فلا يظفَر من الأحدب إلا بكلماتٍ معسُولَة ، تُهدِّئ من روعه ، وتُفْسِحُ له أملاً قريباً .

ويطالعه النوتى يقول فى صوت ليِّن المكَاسر :

كن صبوراً يا سيِّدى ... لا تَتَعجَّلْ مَجِىء الزورق ... أتريد أن نقضى عليه إن نحن أجريناه قبل أن يكتمل بُرْؤه وتعودَ إليه العافية ؟ ... لكل شئ يا سيدى أوان يَكْتَملُ فيه .

ولا يحظى هذا الحديث من « طور أغلو أفندى » إلا بهزَّةٍ من رأسه وهو يَنْهَالُ على شاربه فَتْلاً ، وقد منَعَهُ الحزنُ القَرار .

(٣٩)

وفى أمسية استدار قمرُها واكتمل ؛ تجلَّى « طور أغلو أفندى » على مرسَى قَصْرِه ، ومن فوقه الهلالُ الوَضئ ، متُخذاً مَقَامَه ، خالياً بنفسه يَسْتَمْرئ لَذَّة السكون الشامل ، والهدوء المُريح ، تَقْطَعُه عليه فى الْفَينَة بعد الفينة أنوارُ السُّفُن ، مخترقةً المضيقَ ، على حين شَعر هو بنفسه تَتَّصل بسرائر الكون وتذوب فيها وقد خدر عَقْلُه واستنام فكْرُه ، وانطلقت روحه تستشفُّ من حوله جمالَ الطبيعة وفتنة الوجود .

وفيما هو هائم فى ذلك الملكوت الساحر ، أثاره عنه صوتٌ

من البحر يناديه ، عرف فيه صديقاً عزيزاً عليه ، فرحَّبَ به ودعاه إلى مشاركته تلك الأُمْسِيَة السَّجْواء .

ودار الحديثُ بين الصديقين ، في شئون شَتَّى ، كلٌّ منهما يبث خَدِينَه ذاتَ نفسه ، وينفُضُ له جُعْبَةَ الأخبار .

وساقَهُمَا السَّمرُ إلى النوتيِّ الأحدب ، حارس القصر ، فامتدحه « طور أغلو أفندى» وأطنب فى إطراء وفائه وأمانته.

ومال عليه الصديق يرْمِي فى أذُنه بتلك الكلمات :

لا تُسْرِف في حسن الظن بالناس ... الأقاويل فى شأن حارِسَك كثيرة لو ألقينا بِهَا للبحرَ لما بقيتْ فِيه رُقعةٌ لِسَابِحٍ .

وانتفض « طور أغلو أفندى » يُزَمْجِر :

لا ... لا شك إنها وشاياتٌ وضيعةٌ دُسَّتْ عليه ... وشائعاتٌ مغرِضَةٌ يُراد بها الوقيعةُ بينى وبينه .

وطوَّح « طور أغلو أفندى » بيده ، مستنكراً ما وَعَى وهو يُواصل القول :

أوكلُّ ما يُقال فى شأن الناس حقيقةٌ تستوجب التصديق ... لا ... ولا ... ولا ... الناس ، يا عزيزى ، طُبعوا على أذيَّة وشَرٌّ .

- أنت مُحقٌّ ... ولكن ألا يَجْدُرُ بك التَّقصِّي والتعرفُ حتى يتكشَّفَ لك ما خفى عنك ؟

- أنا واثق به ... وعَنْ تصرُفاته عليم خبير ... ليس هناك ما أجهلهُ عَنْه .

- أنت وشأنُك ... لا أرغب أن أكْرِهَك على شئ .

ثم حدَّج الصديق ساعةَ معْصَمِه ، فنهض يَهْمِسُ بقوله :

لقد أوْغَل الليلُ ... حان لى أن أودِّعَك .

وأمسك بكفِّه يشدُّ عليها مُودِّعاً ، فأحسَّ بها باردةً بُرودَ الثلج ، تَنْتَظِمُهَا رعْشَةٌ ، فغمغم يهذِّئ من رَوْع ربِّ القصر :

لا تعبأ بما نقلتُ إليك ... طالما وقع الناس فى الناس ... أنت بحارسك أدرى .

فزمزم « طور أغلو أفندى » :

أوَحسبتنى سَفيها أبله أتركُ زِمَامى إلى نوتىٍّ أحدَب يتلاعب بى ! ... إن عينى لراصدةٌ له لا تغْفُلُ عنه ؟

وانصرف الخدين ، وبقى « طور أغلو أفندى » وحيداً على المرسى ، تعنُفُ به الظنون .

وغامَت الدنيا لعينى « طور أغلو أفندى « ونهض يَذْرَعُ المرسى على غير هدىً ، شاعراً بأنفاسه تَحْتَدِم ، وأوصالُه ترجُفُ كأنما مسَّتْه حُمَّى .

لم يعُدْ ذلك الليل بسكُونه الساحرِ وهدوئه السابغ ، إلا ماردأ انشقَّ عنه البحر ، يَجثُم على صدره ، ويأخذ بخناقه ، ويملأ عينيه ظلمةً وَوَحْشَةً .

إنه فى حاجة إلى الضّياء ، إلى نُور الصباح ، يستهديه جَليَّة الأمر ، ويجلو له وجْهَ الحقِّ .

ولعبتْ برأسه الحيْرة ، وشقيت به قدماه ، وهو يَتَنقَّل بين المرسى ومنزلِ الحراسة يهُم بأن يَسْتَدعِى حارسَه الأحدَب ، يُفْضِى إليه بما نَمَا إليه من نبأٍ أليم .

ولكنه لم يستقر على رأى ، فانتهى به المطافُ إلى مَرْقد قَلِق ، ونومٍ مُتَقطِّعٍ ، وأضغاثُ أحلام ، كأنها وخزُ الإبر .

(٤٠)

ومنذ تلك الليلة لم يَعُدْ لـ « طور أغلو أفندى » هم إلا محاولةُ التَّعرُّف على شأن حارسه فى أناة وتروٍّ .

لم يكن حديثُ صديق الليلة المعهودة هو الحديث الوحيد الذى نال من النوتىِّ الأحدب ، فقد خاضَتْ فى سيرته الألسُنُ تعزو إليه أسوأ ما يُعْزَى إلى حارس قصرٍ موثوق به .

ولاحقت الشائعات « طور أغلو أفندى » كأنها مطرقة تهوى على سندان ، فلا تلبث أن تحدث فى نفسه دوياً مخيفاً ، يرجف له .

وزاده بلبلةً واضطراباً أن النوتيَّ لم يَفِ بوعْده فى شأن المحاسَبَةِ ، فما زال ربْح الزورق من الصَّيد خلال السنوات الخوالى سراً فى ضمير الحارس الأمين .

وقرَّ عزمُه أن يجابِه الأحدَب بسؤاله .

وإبَّانَ الغُروب ، فى يوم اشتدَّ قيظه وثَقُل ، قرَّ عزْم « طور أغلو أفندى » على مصارحة النوتى بجلية ما تجرى به الألسن من شائعات وأقاويل .

بيد أنه أحجم وتهيَّبْ .

ويحه ...

أيَعْجَز أن يكاشفه بما يُساوِره من ريبَ وشكوك ؟

أيُسَلِّم نفسَه إلى ذلك النوتىَّ يُضَلِّله ويغرِّرُ به ، دون أن تكون لديه جرْأة الضَّرب على يده ، يستخلص منه حقه ؟

إن المال ماله ... وما ينبغى له أن يتهاون به ويُفَرِّط فيه .

لو أن له ولداً خرج من صلبه تَطَاوَلت يدُه إلى صَفْوَة ماله بالعَبَث والتبديد ، لكان حَرِياً أن يَبْترها بترا دون أن يرحَمَه ويُشْفِقَ عليه .

وملكت « طور أغلو أفندى » ثورةٌ عارمة ، تَنْتظِمُ أوصالَه ، فلم يتمالك أن نادى حارسه .

وانتظر يَقْرَع الأرض بعصاه .

ثم كرر دعاءه .

وحضّر النوتىٌ .

وواجهه « طور أغلو أفندى » بقوله :

يزعمون أنك تَثْرى على حسابى ... وأنّى لستُ إلا مَطِّيةً تُحَقِقُ بها رَغَائِبَكَ ومآربَك .

وقاطعه النوتىُ وقد تخاذل صَوتُه فتلعثَم يقول :

أستغفر الله ... قُطِعَ لسانُ من يتقوّلُ عليك بالسُّوء ... سعادتك فوق رأسنا .

واحتدَ ربُّ القصر وعلا صوتُه يهدِرُ :

يقولون إنّى مُغَفَّل ... وإنى طرطور ... وإنك تخدَعُنِى ... وتَغْتَالَ مالى .

واسترد النوتى بعض هُدُوئه ، وجنح إلى مُراوَغَةٍ ومُداورةٍ يقول :

هَوِّن عليك يا سيدى ... تَبيَّنْ منى الأمر ، واستوِح الحقيقةَ ... لا تسمع للوُشاةِ والحاقدين ... إنى أقوم نحوك بما يُوحى به ضميرى ... أتوخّى ما فيه مَصلحتَك ... واللّهُ على ما أفعل رَقيبٌ .

- ثمة أعمال قمتَ بها إذن ... فماذا صنعت ؟

- الخير كل الخير .

- يزعمون أنك تَسرقني ... تَنْهَبُني ... وأن ثِقَتِي بكَ دُخَانٌ في الهواء ... لا يجدر بي أن أمنحك إياها .

وشمخ النوتي بأنفه وسما برأسه يقول :

ظلموا واعتدوا ... أنا لم أسرق ... أنا شريف ... إن كنت في رأيك لصاً فلا يسعني إلا الانقطاع عن خدمتك وإخلاء السبيل لمن هو عندك وعند الوُشاة الحاقدين حافظٌ مكين .

وصرخ « طور أغلو أفندي » ملوِّحاً بعصاه :

تهربُ من الميدان قبل أن تُقيم الدليلَ على براءتك ؟!

وتعاظَم النوتيُّ يقول في غَيْر مبالاة :

أوَ مُذْنب أنا لأبرِّئَ ساحتي ؟! ... لا عليك يا سيدي ... لن يكون الحساب عسيراً .

- علينا إذن بالأسانيد وقوائم الحساب .

- غداً أُخْرِس لك ألسنة السوء .

- بل الآن ... الآن الحساب ... الساعة ... لا أحتمل .. كفاني تسويفا ومراوغةً .

– سأوافيك بما ترغب ... أمهلني إلى غد لأجمع أوراقي ولا أتعبكَ في فَحْصٍ ومراجعة .

– لا ... الآن ... عليّ بأوراقك .

وحمل النوتيّ قدميه حملاً على أن تخطوا به إلى مَغْنَاه ليَجْلِبَ إلى سيده ما رَغِبَ فيه من أوراق .

(٤١)

وعكف « طور أغلو أفندى » على الأسانيد يتفحصُها والنِّقمة تملأ ما بين جَنْبَيْه .. أوراق بالية مطموسة نهكها الطَّيُّ والنَّشر ، فلم تُسْفِر أو تَبِين .

وتفرّس فيها مليًّا ، وهو بين مُصدِّقٍ ومكذِّب ثم سما برأسه يسَدِّد نظراته إلى النوتى ، وقد احمرَّت حدقتاه وانتفش شاربُه يهتَزّ من حَنَقٍ ، وجَأر :

زعموا أنك أدرت قصرى لحسابك ... جعلت منه خانا ... الحجرة فيه تسكن لقاء أجْرٍ معلوم !

وأجاب النوتّي يقول فى غير تردُّدٍ ، مسترخِي الأعصاب ، رائقَ النَّبْرَة :

على حَقٍّ هم فيما أشاعوا .

وتحيَّر « طور أغلو أفندى » على مَقْعَده ، واحتد جرسه قائلاً :

إذن ليست الأقاويلُ مجرَّدَ شائعاتٍ .

- لا يخشى الحق إلا لصٌّ ... أنا شريف .

وزأر ربُّ القصر متَهكِّماً :

أنت شريف ؟! ... أين ذلك الدخل من الإجارة ؟ ... لا أدرى له أثراً فى قوائم الحساب .

ورام مكانه ، واستدار يفكر برهةً وهو عاقدٌ ذراعيه على صدره :

أجذَب عقلُه فلم تسنح فكرة الخان له ؟ ... إنها لا شك تجارةٌ مربحة ... رزق حلال ومكسب طيب ... سوف يُعاوِدُ النظر فى ذلك المشروع العظيم ... عليه الآن تصفيةُ حِسابه مع ذلك ... ذلك الثعلب اللعين .

والتفت إلى الأحدب يقول ، وهو يحُدُّ فيه النظر :

وما يُدرينى لعلّك اتخذْت من القصر مَبَاءة للمفاسد ومأوىً لِلْخُلعَاءِ والماجنين .

فخفض النوتى رأسه متصنعاً الورَعَ يُهَيْنِم :

حاشا لله ... قصرك مصونٌ مكنونٌ ... ولكن ... ألا يهدأ سيدى حتى يتبيَّن الأمر عسى أن يقْتنع بصواب ما صنعت ؟

فهزَّ « طور أغلو أفندى » رأسه مستخفًا بما سمع وغَمْغَم فى سخرية :

- هات ما عندك !

- احتاج القصر إلى رم ورأب ... مياهُ المطر كادت تُهْلكه ... أعملتُ فكرى ... قادنى التبصُّر إلى أن ألجأ إلى هذه الوسيلة حتى لا يغرَمَ سيدى من ماله بارَةً ... والتدبيرُ نصف المعيشة .

وكادت جَهَامَة « طور أغلو أفندى » أن تنقشع ، وثقتُه بالرجل تُعَاوده ، بيد أنه أمسك بالورق يراجعه ، وإذا بسند يخص الزورقَ يَبْرزُ له ، فاستردَّ تجهُّمَهُ واختنق صوتُه يُجَمْجِم :

ماذا أقرأ ... أللزورق نفقات ؟

- نعم .

وأوشك « طور أغلو أفندى » أن ينفجر ، غير أن النوتى استمْهله يقول :

الاتفاق بيننا ينص على أن أقوم بالصيد ... أنفق ثمن مبيعه فى تعمير ما أفسد البحرُ منه ... ثمنُ الصيد لم يفِ بما لزم الزورقَ من صيانة .

- أجدَب البحر طوال الأعوام التى غبتُ فيها ؟

- لم يجدبْ ... ولكن الصيد حظوظ ... كانت السوق فى كساد .

خلاصة القول أننى خرجت من المعركة صِفْر اليدين .

– أيها الصائد الذى لم يَسْمح بمثله الزمان !

– هذه إرادة الله .

– بل هذه لصوصيةٌ ... أفاهم أنت ... ؟ لصوصية ليس لك فيها نظير .

وتنمَّر النوتى يقول :

لستُ لصًّا ... ماذا سرقتُ منك ؟

وزعق « طور أغلو أفندى » :

أنت مطرود ... مطرود ... لا بقاء لك معى بعد اليوم .

– سبحان الله ... أعلى هذا النحو تستطيل علىَّ ... أبهذا تكافئنى على إخلاصى لك ؟ ... الله هو المكافئ ... حسبى الله ونعم الوكيل .

وتمادى رب القصر يَهْذر :

بل حسبى تلك الأوراق المزورة ... سوف يستضيفك من أجلها مَحْبسُك ... لأمثالك شُيدت السجون .

(٤٢)

وانبعث « طور أغلو أفندى » كالموجة المزْبَدَة ، يتوخىَّ منزل

الحراسة ، لينفذ أمره إلى أسرة النوتي بالجلاء عن المنزل والتخلّي عن الخفَارة ، وهو يصرُخ بصوت ذبيح :

من كان له عائل مثلَ ذلك اللص ... فليس له عندي مُقام ، فلترحلوا جميعاً أيها الطامعون المتآمرون .

وكان ابن الأحدب - ذلك الفتى الحداد - مشغولاً بآلة بين يديه يحاول إصلاحَها ، فاحتدّ عليه ربُّ القصر يقول :

أما أنت فلتذهب بحدائدِك إلى السعير ... لَملِم أشياءك وارحل ... ارحل على الفور .

لم يتوقّع الفتى أن يسمع من « طور أغلو أفندى » ما سمع؛ فقد عهده حفيًّا به ، عَطوفا عليه ، مشجّعاً إياه بقول رحيم ، فوقف واجما يصعّد فيه نظره دون أن ينْبِسَ .

وتقدم « طور أغلو أفندى » يركُل الآلة بقدمه وهو يُدَمْدِم :

أما فهمتَ بعدُ أيها الأبله ؟ ... أغرب أنت وحدائدك عن وجهى ...

وأذهلت الفتى صدمةُ المفاجأة ، فاكفهرَّ وجْهُه ، وتمرَّدَتْ نظراتُه ، وتحرك نحو رب القصر يأخذ بخناقه .

فلما أحس « طور أغلو أفندى » من الفتى دلائلَ الشرِّ ، تراجع فى تَهيُّبٍ ، على حين انطلقت زوجةُ الأحدب ، تصدُّ ابنها عن الاندفاع وهى تكرر :

لا ... تعقّل ... إيّاك والتهَوُّرَ .

فعاودت « طور أغلو أفندى » شجاعتُه ، وإذا هو يزأر :

ستخرج من هنا ... ستخرجون جميعاً .

وخفَّ النوتى من أقصى الحديقة يسعى ، فتطاول عليه ربُّ القصر بقوله :

أما أنت فبينى وبينك حساب عسير .

ونفر « طور أغلو أفندى » عن منزل الحراسة يعلُو بصدره ، ويتشامخُ بأنفه كأنه القائدُ المظفَّر ، خرج من المعركة يَتيِه بغلَبَةٍ وانتصار .

(٤٣)

وأخلى « طور أغلو أفندى » عهدة النوتى من القصر بعد أن تفقَّده وأحْصى ما فيه .

ولما اطمأن إلى محتوياته ، من رياش وتحف وألطاف ، قال :

بقى الزورق ... بنا إلى مكانه أتسلَّمُه .

– أى زورق ؟

وتفرّس فيه « طور أغلو أفندى » مليًّا ، مشلول اللسان ، مخنوقَ الأنفاس ، وكأن الأرضَ تَميد به ، فتهاوى على المَقْعد لاهثا يُغَمْغِم :

ألا تعرف أىّ زورق ؟

- مالى وللزورق ؟ ... هو حيث يصلَح ... وسيوافيك به الصانع بعد أن يُتِمَّ مُهِمَّته فيه .

- لا بد أن تأتى لى بالزورق من ساعتك .

واستقبله الأحدب بنظرة استخفَافٍ يقول :

كيف آتيك به وهو مفكَّكُ الأجزاء ... أأحمله لك فى صرّة؟ ... صبركَ يا سيدى ... سيجيئك الزورق مُجَدَّدا على ما يرام .

- أين المصنع الذى أوْدعته إياه ؟

- مالك ولِلْمصنع ؟ ... لقد أنبأتهم بعنوان القصر ... وسيوافونك به ... فلا تعجل .

- هات قاربك وامض بى إلى المصنع لأتسلم الزورق .

- لقد أخليت عهدتى ، فدعنى وشأنى أكسب رزقى ورزق عيالى ... أتريد أن تعطلنى يَوْمى كله ؟

- الزورق فى عهدتك ولا بد أن تسملنى إياه .

- غداً أحضر لهذا الأمر .

- بل اليوم .

- اليوم يوم الأحد ... يوم الراحة ... المصانع فى عطلة .

فاستشاط « طور أغلو أفندى » غضباً ودمدم :

لن أُفْلِتَكَ حتى تُعِيدَ إليٌ الزورق .

- لا زورق لك عندى .

- أنت لص .

- احفظ لسانك ... أنا أشرف من كل إنسان .

- سأسوقك إلى السجن .

فكسَرَ له النوتى عينه وهو يتلعّب بأصابعه ، وقال لسيده بالأمس :

إن كان عندك إثْبات فأبْرِزه .

وجُنَّ جُنون « طور أغلو أفندى » وما لبث أن هجم على النوتى يوسعه لكماً ولكزا ، غير أن الأحدب أفلت منه إلى باب القصر ناجيا إلى الطريق .

فتبعه « طور أغلو أفندى » شاهراً عصاه ، متعثراً فى جِرْمه الثقيل ، يجاهد فى عُسرِ اللحاقَ به وهو يقول فى صوت حامِى الجَرْس :

إلى اللص ... النجدة ... إلى اللص ... إلى اللص ... إلى اللص .

(٤٤)

اقتحم « طور أغلو أفندى » مخفَر الشرطة ، ووقف أمام المحقّق لاهثاً يدلى بأقواله ، متهما النوتى بسرقة الزورق والاستيلاء عليه .

وسما المحقق يتفحصُه فإذا حيّاله عينٌ متورّمة ، وشاربٌ مُبَعْثَرٌ غيرُ مصقول ، ووجه محتَقنٌ شوّهته التجاعيد والأخاديد وكأن الرجل حطامُ إنسان بَغَتْ عليه الأيامُ ، ولسانٌ عَيِيٌّ كلسان مشلول ، لا يُفْصِح إلا عن قوله :

إنه لص ... لص وضيع ... زورقى ردُّوه إلىّ ... رحمكم الله .

ونطق المحقق يقول وهو ينقل حبات مِسْبحته :

أرجوك ... أريد الوقائع ... الوقائع مجردةً من كل تعليق .

– لقد سرقَ الزورقَ ... هذا فوق ما كان من جناياته على القصر ... أجّرَ حجراته فى غَيْبَتى عنه ... واتخذ من الحديقة بؤرة عبثٍ وإفساد .

وابتسم المحقق يقول :

نبدأ بالزورق ... أعندك من الوقائع الخاصة بِه مزيدٌ .

فلوّح « طور أغلو أفندى » بيده وغمغم :

- ألم يكف هذا كله ؟ ... إن الرجل اغتال مالى واستغلَّ قصرى ولم يحْفَظ الوديعة ولم يصُن الأمانة ... وها هو ذا قد أخفى الزورق ... أبعد ذلك زيادةٌ لمستزيد ؟

فمد المحقق ذراعه ، وجمع أصابعه وهو يشير إلى الشاكى المُحْنَق أن يهدأ ، ثم قال له :

لكى تأخذ القضيةُ مجراها ، عليك أن توافينى بسند ملكيتك للزورق ، وبرُخصة إجرائه فى البحر ، وبما عسى أن يكون بينك وبين النوتى من تَعَهُّدات .

وما سمع « طور أغلو أفندى » حديثَ المستندات والتعهُّدات حتى تخاذلت الكلمات على شفتيه ، وأخذ يرنو إلى المحقِّق فى حيرة وبلَه ، وأخيراً نطق بقوله :

اسألوه ... الأوراق معه ... أتشكون فى صحة روايتى ... الزورق زورقى ، اشتريته بحُرِّ مالى ... أوَ ترانى أفترى عليه الكذب ... الناس كلهم شهودٌ على صدق دَعْواى .

وضاق المحقق « بطور أغلو أفندى » فحدَّجَه يقول وعلى شفتيه ابتسامةُ عَجَب :

ماذا تريدنا أن نصنع ؟ ... أنسأل اللص عن مستندات تُدينُه؟

فارتُجَّ على ربِّ القصر ، ووقف حائراً يَغْشَاه صمتٌ .

وأشفق عليه المحقق ، فقال له فى رفق :

يخيل إلىّ أنك مُجْهد الآن ... لنرجئ التحقيق حتى تبحث عما طالبتك به ... الحصول على هذه المستندات أمر لا بد منه.

واستدعى المحقق أحد أعوانه من رجال الشرطة وأمره بأن يَصْحَب « طور أغلو أفندى » حتى يَركب إلى قصره .

ثم ودَّع ربَّ القصر بقوله :

إنى فى انتظارك وقتما تشاء .

ثم تناول إضمامة التحقيق يطويها فى رفق .

وانصرف « طور أغلو أفندى » يجرُّ قدميه ، منهارَ الأعصاب ، لا يُحْسِن المشْى ، وعلى عينيه غشَاوة تحجبُ عنه وجهَ الطريق .

(٤٥)

لقى النوتى فى مَحْبسه - أياماً وليالى - ألواناً من الإهَانة والتعْذيب أريد بها حملُه على الإقرار والاعتراف ، لكنه جَابَه مصيرَه فى احتمالٍ وصبر ، فلم تُجْدِ معه حيلةٌ ولم تلن له قناة .

وكانت له فى تلك الأيام والليالى العاصفة عينٌ باكية ، يستدر بها الرِّثاءَ والإشفاقَ ، وقلبٌ طروبٌ يَحفِل بالأمانى الرِّطاب .

وطالت وقْفَاته بين يدَى المحقق وفى نظراته براءةٌ ومَسْكنةٌ ... وعلى لسانه ضَراعة وتذلُّلٌ .

ولم يخرج المحقق منه إزاء ما واجهه به من تُهم إلا بقوله :

رحمةً بى يا سيدى ... لقد ألجأتْنى الحاجة إلى أن أقبل العمل فى قصر ذلك السيد الغريب الأطوار ... ولقد لقيت من استبداده وطُغْيَانَه الأمرّين ، حتى عجزْتُ آخرَ الأمر أن أسايره ... فاستعفَيْتُه من مواصلة العمل معه ، ولكنه يأبى إلا أن يَرْمِيَنِى بالتهم الشنعاء ، ويَخلُق من حولى هالةً من الأباطيل ، ليرغمنى على معاودة السير فى ركْبِهِ ، أو ليُضيْع حقّى فى مكافأتى عنده على سابق خدمتى له ... ولا يخفى عليك يا سيدى المحقق أن رب القصر لهو من هؤلاء الذين يَبْغُون على حقوق أمثالنا من المساكين والفقراء ... ياللّه من أولئك الذين يريدون أكلَ حقوق الضعفاء المحاويج !

- جميل كلامك ... لكن ما رأيك فيما أدلى به الشهود وهم ممن لهم شأن واعتبار ؟ ...

- لم يسبق لى بما قالوه علم ... إنهم يظاهرون من هو على شاكلتهم ولاءً لشخصه ومجاملةً لصُحْبَته ... أتراهم يأبون دعوَته أن يكونوا شهداء له علىّ بحق أو بغير حق ؟ أولَم يكفكم ما أبرزت من مستندات ملكية ابنتى للزورق ؟

وينخرط النوتي في بكاء ونشيج ، ويداه مبسوطتان تلتمسان معونة السماء . وهو يستغفر الله « لطور أغلو أفندى » مما رماه به من افتراء .

(٤٦)

تردد « طور أغلو أفندي » على مكتب المحقق في صحبة مَن عوّل على مشورتهم ومؤازرتهم من المتسكّعينَ على أبواب دُور النيابة والقضاء يعرضون خدماتهم القانونية بالأجر الزهيد ، لكنه كان يعود كل مرة ، وقد شيعته خيبةٌ وإخفاق .

(٤٧)

وانبلج صبحُ يوم وقد أمر المحقق بإخلاء سبيل النوتيّ بعد أن لم يقْتنع بكفاية القَرائن وما ردده الشهود في قيام أركان الاتهام، وتوفير الأدلة على إدانة الرجل فيما رُمِيَ به من دعوى السرقة والاغتصاب ، فاستقرّت إضْمَامةُ الدّعوى في زاوية من زوايا مكتب المحقق رَيْثَمَا يُتاح لها قبس جديد يَبْعث فيها خَفْقَة الحياة .

وخرج النوتي من محبسه يتلقّى نفحاتِ النور والهواء ، وقد تراءت في مُخَيّلته « فورتونيه » - ابنتهُ الحبيبة - رافلةٌ في ثوب العُرس ، تُزَيّن صدرَ الزورق البخارى الذى يحمل اسمَها الكريم ، وقد تهادى بها على جَنَبات « البوسفور » ، في طلاء جديد ، وكأنه هو الآخر عروس في بَهَاءٍ ورُوَاءٍ .

[تمت]

تحية

من صاحب زورق الأحلام

إلى

أستاذه الكبير اللغوى الضليع ، الأديب الفنان القدير

الأستاذ محمد شوقى أمين العالم

عضو مجمع اللغة العربية .

(١)

مات الرجل والرجالُ قليلُ

هذا لعمرى خطبُ جليلُ

*   *

اختاروا لك من أسماء النبى الكريم

« محمد » « أمين » فكان لكنيتك التكريمُ ، عَينُ التكريم

*   *

سمَوْتَ باسْمَيْه ، عليه السلام ، على باقى العالَمين

وشَرفَ قدركَ بهما على سائر المؤمنين

*   *

أضافوا لتسميتك « شوقى » ولقّبوك « بالعالم »

هما عنك الإفصاحُ وإليك الإشارة :

نكنت بشوقى للحب العلامَة ، « وبالعالم » للعلم بين الشارَة

والإبانة

*   *

أكُلُّ « شوقى » عبقرىُّ النزعة فصيحُ البلاغة والبيان ؟؟

« فشوقى » أمير للشعراء « وشوقى » أميرُ للكلمة ، والتّبْيَان

*   *

(٢)

لم يمض على رحيلِكَ إلا أيام

فإذا الشوق إليك يضطرم بمزيدٍ من هيام

* *

الفُصْحَى أنْهَكَتْهَا لغيابك الدُّموع

وأطْفَأتْ فى لواعج أساها وَهَجَ الشُّموع

* *

العَروض نَعاكَ فى فؤادٍ مكلوم

والبلاغة ناحت لفقدِكَ فى شجن محموم

* *

الشريعة الغرّاء هزَّتْهَا وفاتُك

فنثرت أزاهيرَ الرَّحْمةِ على ناووس منامِك

* *

قواميس العربية تسربلتْ لهجرك بالسواد

كأن الحزن كلماتُها ، انفرطت على السطور كأنها الرماد

* *

كم ناجَيْتَهَا وناجتك فى همسات ومسرات

فكانت وكنتَ الحبيبَ الأنيسَ على مَدِّ السهَرات

* *

سلَّطْتَ عليها أضواءً كاشفةً تستنبط معانيها المتنوعة

أسفرتْ لك راضية عن وجهها فى مقاصدها المُتَلَوِّنة

* *

لم تبخل عليك بأسرارها

تمكَّنْتَ دون عناءٍ من سبْرِهَا

* *

غُصْتَ فى أحشائها تُعمل فيها مِبْضَعَكْ

فالتقطْتَ من بطونها لآليها بِمِلْقَطِكَ

* * *

إن تَمَنَّعَتْ على غيرك فى إباءٍ وارتفاع

انساقتْ لك مُذْعِنَةً كأنها سبيةٌ مطواع ،

فى غيرِ خَجلٍ ولا امتناع

* *

فتراقصت فى مدلولاتها مُسفرةً

تزيدك تعلُقاً بعشقها فى أشْواق المعرفة

* *

أبْحَرْتَ بصُحْبَتِها فى سفينةِ الأدب الحالية

تُنمِّقُ منها الرواية والقصيدةَ والتمثيليَّةَ الشادية

* *

كنت تنتقى أفصحَها ، كصائغ الحُلِىّ ، يصوغُ من جواهر اللغة الكلمة المناسبة

ليس لها فى الحديث بين الكلمات كلمةٌ مرادفة تحتل مكانها منافسة

* *

استَقْبَلَتْ سَفِينَتَك من اللغة بِحَارٌ من أمواج كالجبال عاتيةٍ من صعابها

حاورتها فى إحكامِ تُجَنُّبِهَا ، تجنبَ النوتى الفَطن ، شِعاب اللحن المهلكة لا تصطدمُ بها

* *

سُقْتَهَا بين الأمواج فارداً أشْرِعَتَهَا إلى رحاب السلامة الهادية

نائياً بها عن شاطئ الخطأ برماله المحرقة وجنادله العادية

* *

لم تجنح عليه تُسْلِمُه زَادها من كنوزَها الباهرة

زادُها : جملٌ رائعة ، وتعابيرُ ناصعةٌ ، تُضَوِّى فى روعةِ كلماتِها الزاهرة

* *

جلَّيْتَهَا مشرقةً فى ثوب مُحْكَمِ التفصيلِ أنيقْ

يتضرَّعُ منه أريجٌ نفَّاذٌ ، مُسْكِرُ الرحيق

* * *

(٣)

كنت لِمَنْ أراد أن يُلبس الفُصْحَى رداءً لفكره رَجاءَ المُسْتَعان

تؤلف من بلاغتها كساءً ملتحمَ النسيجِ ، مزركشَ اللون ، زَهِيَّ اللمعان

* *

اقتحمتَ معاركَ الفُصحى والعاميّة فى جُرأةٍ وإقدام

برهنتَ بالدليل أن الأولى لا تنكر أبُوتها للأخرى فى تمام ودوام

* *

فالنَّسبُ بينهما واضحٌ جليٌّ عتيد

لا ينكره إلا كلُّ مُخادعٍ مُدَّعٍ عنيد

* * *

(٤)

شكت أحرفُ الكلمات فى قَدّها الموروث تخلُّفَهَا ، وأنها

أصبحتْ على ركْب الحضارة متأبّيةٌ عسيرة

فأسْرَعَتْ عبقرتَيْكَ تُصوِّرُهَا للطباعة أشكالاً أليفة يسيرة

* *

خرجت فى صورتها التى صوّرتها تتناغم معها آلاتُ

التكنولوچيا العصرية

أدّت على وجه الكمال وظائفَها الأساسيةَ واستجابتْ تلبى

رغباتِها الفرعية

* * *

(٥)

احتضَنَتْكَ الصحافةُ زهرةً فى عمر الربيع

فغرَّدَ قلمُك الرضيعُ بالمنثور البليغِ وبالنظمِ الرفيعِ

*　　*

كنت فى ساحتها ، على حداثتك ، صِنْوَ عظماء المفكرين المجيدين

وفى فطنتك الفتيةِ وجيهاً بين المبدعين المجذذين

*　　*

كأنَك حين تَرنَّمْتَ بالمقالات وتغنَّيتَ بقصيد الأشعار

موسيقارٌ أبدع ، فى مهبٍّ النغمِ ، ألحانَ الأفكار

*　　*

لم تقف مكتوفاً عندما احتد الجدل عن « أمير المنظوم » واحتدم تشيعت لعبقريته الفذَّةِ ، فى رفاهَةِ شاعريتكَ ، تذودُ عنه ، فَطِنَ المنطق قَديرَ القلم

*　　*

غدوتَ على خصومه ، السيفَ القاطع ، فَنِعْمَ النصير

عَرِكَكَ « أصحابُ الديوان » شواَظَ عذابٍ ، وبئس المصير

*　*

نَعَتْك الصحافةُ بقلب كسير ، وعينٍ قريح ، ولسانٍ لاغى كليل

ما فَتِئْنَا نُنْشِدُهُ بنضالك المجيد ، ونُمتَنُّ لإسهامكَ الجليل

*　*

استحققتَ منا ، عن حق وجدارة ، التمجيد والثناء

لم يكن ما قيل فى رثائكَ إفْكاً ورِياءً وافتراء

*　*　*

(٥)

بكاك مع الباكين تلاميذك من نابهى المستشرقين

جلسوا فى مأتمك جلوسَ الطير الحزين متأزمين مذهولين حَائرين تائهين

* *

كيف يتَسنَّى لهم ، بعد انطفاء نبراسِكَ ، التعامل مع العَروض والفقه وأصول الدين ؟!

كيف لا يبكون وهم إليك بالفكر منتمون وبما أتقنوا من دروسك مَدينين ؟!

* *

ألم يُقبِلوا على ناديك وهم باللغة وأعرافها جاهلين ؟

فأنْزَلْتَهُم ساحتك على الرَّحب فى كرم ضيافةٍ مُقيمين ، ومن نبع معارفك مُنْهِلين ؟

* *

خرُجت من تحت يديك كلُّ ما هو شرْقىٌّ مفتونين مبهورين

ولكل ما هو « شوقى » حامدين شاكرين

* *

تَغَنّوا بما اسقَيْتَهم من رحيقِ الشرق وشَهدِهْ ساجدين

كأنك الفرات ، يشيع برحيقه ، غموضَ الشَرق وسِحره ، فوقعوا في هواهُ عاشقين

* * *

(٦)

نزلْتَ السجنَ زهرةً من الزهور الفَتية

لم تُعوقك حداثة السن أن تقود المظاهرات الوطنية

* *

استضافوك في محبسِكَ تحطيماً لمشاعرك الفائرة

لم يطو ظلامُ المحبسِ فكرك أو يفتّ في إرادتك الثائرة

* *

أرادوا أن يحطّوا من قدرك ، فسمَا السجْن علواً بمقامك

زيَّنْتَ مَحَبسَك بفضائل نضالك

* *

مَنْ سُجِنَ مطالبا ببعث الدستور ونشوره

كان نسراً كاسراً في تحويمه وعبوره

* *

ألم يقل « يوسف الصديق » عليه السلام : السجن أحب إلىّ
من حياة تملأها الرزيلة والآثام

وهتفْتَ أنت : السجنُ أحبُّ من عيشٍ أحياهُ حُرّاً ، يتيم الدستور
كفاقِد الأب بين الأيتام

* * *

(٧)

غزوتَ مجْمَعَ الخالدين

نَجْماً من أنْجُم السامقين

* *

فكنتَ بينهم « شهادة اسْتثمار » متواصلةَ الفائدة

كثيرُ العطاء موفورُ الفائدة

* *

فطوبى لك من عضو سامى المكانة مرموقِ المنفعة

أياديك فى كل وادٍ دائبةٌ منقِّبةٌ مُبدعة

* * *

أبت ستائر الخاتمة أن تُسْدَلَ على الفصل الأخير من نهايتك الفادحة

فتركتْ إسدالها لمسرح الأضواء تضئ تفاصيلَ حياتكَ العامرة

* * *

(٨)

صُنْتَ عهد هواك لا تسلو أبدا ذكراه

ما زلتَ تعيش فى حداد يروح مغناه

* *

أبيتَ أن يقاسم عشقكَ منافسٌ أو شريك

يستأثر بك دونها ، وعن صغارك يَفْتنُكَ ويُلْهيك

* *

عشتَ فى سعير حُبّكَ تحتضنهُ وتُنَمِّيه

وبجفاف وجدانك تزكّيه وتغذيه

* *

فَطمْتَ نفسكَ عن المرأة ومباهجهَا

تُمَهِّد لصغارك ، فى حُضنك ، حنانَ الأمّ ومنَاقبها

* *

أقسمت أن لن تسوسهم بعد الأم ضَرّةٌ

تسومُهم العذابَ ، فى عنْفِ غيرتها ، غيرُ رحيمةٍ ولا برّةٌ

* *

أسكنْتَهُمْ من وُجدانِك الملهوفِ قلبَكَ الولهان

تستكمل معهم ، بالصبرِ والتعاطف ، مسيرةَ الصّقل والبنيان

* *

سلكتَ وإياهم حِقْبَة النشوء والارتقاء فى حُلمٍ وحنان

تُلهِمُهُم المعارفَ والفضائل والبيان

* *

فَسَمَوْاْ أنجماً زاهرةً بين النجباء

وانتشروا بينهم فى سَماءِ النبلاء

* *

سَهِدُوا الليالى متنافسين على تمريضك فى مَحَبّةٍ وتَفَان

جزاء ما لاقوة فى كَنَفِكَ من عَطْف وَحنان

* *

لم يتمالكوا أن صاغوا من نَبَضَات قلوبهم أنشودةً تُحنان

لحنُهَا الشادى : المحبّةُ والشكرُ والعرفان

دألم تقل الأمثال : « ابن الوز عوام »

فأطفالك ، فى نُبل سجاياهم ، امتدادٌ وبقاءٌ ودوام

* * *

(٩)

فإليك ممن عجموك الثناء والتوقير

ومن عَركُوكَ السلام والرحمةَ فى رحاب الجنان الوفير

* *

تزفُّك إلى ابنتك ، فقيدةِ الطبِّ ، ملائكةُ السماوات العالية

تجمعُكُمَا ، بعد شتاتٍ ، فى ظل الحبيبة الغالية

* *

فانعموا فى جِنان الخلد ناعمين بسعادةٍ غامرة

لن تجرؤ يدُ الزمن أنْ تُفرِّق بينكم فى قسوتها الغادرة

* *

أنتم الآن حيث الراحةُ والطمأنينةُ دائمان

حيث يعزِلُكمُ عن الفراق والشتات سياجٌ حادةٌ من استقرار وأمان

* *

اسعدوا ... اسعدوا على الدوام

وليكتب لكم الله الرحمة والسلام

الزمالك

شهر فبراير ١٩٩٢

رقم الإيداع : ٥٢٢٤ / ٩٢

الترقيم الدولى : I.S.B.N.: 977-241-050-5


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

